دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الجمعيّات القوميّة العربيّة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني
مقاربة تحليليّة ونقديّة



أ.د. فوزي السباعي
أستاذ التاريخ المعاصر
كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة
جامعة صفاقس – الجمهوريّة التونسيّة

مُلَخّصْ

سلك السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) سياسة استبداديّة ومركزيّة وإسلاميّة في إمبراطورية عثمانيّة متعدّدة الملل والقوميّات، فساهم ذلك في نموّ الوعي القومي، الذي كانت الجمعيّات حاضنته الأساسيّة. وقد عملت بعض الدراسات الكلاسيكيّة على إبراز ركود العمل القومي في عهده بعد أن شهد انطلاقته مع المسيحيين العرب منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، في حين حاول البعض الآخر من الدارسين نفي الطابع القومي العربي لهذه الجمعيّات، معتبرا أنّها مجرّد جمعيّات طائفيّة أو سوريّة أو عثمانيّة. سنحاول في هذا المقال القيام بدراسة نقديّة لهذه الأطروحات، معتمدين في ذلك مقاربة تحليليّة شاملة لمختلف الجمعيّات ولأبرز المصادر. للإجابة عن تساؤلات الدراسة عن طبيعة الجمعيّات العربيّة التي ظهرت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني من حيث التركيبة والأهداف: هل كانت جمعيّات طائفيّة أم قوميّة؟ جمعيّات إصلاحيّة أم ثوريّة؟ جمعيّات اتّحاديّة أم انفصاليّة؟ وإلى أيّ مدى كانت مرتبطة بسياسة عبد الحميد بوجهيها الاستبدادي والإسلامي؟

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٨ يناير ٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر: ٠٤ فبراير ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

السلطان عبد الحميد الثاني؛ الإمبراطورية العثمانية؛ الجمعيات القومية العربية؛ الجمعيات الثقافية؛ تاريخ العرب المعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.273232 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فوزي السباعي، "الجمعيات القومية العربية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني: مقاربة تحليلية ونقديّة".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الخامس والخمسون؛ مارس ٢٠٢٢. ص ١٢٥ – ١٤٤.

Corresponding author: faouzisbai gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

وصل السلطان عبد الحميد خان الثاني إلى السلطة سنة ١٨٧٦، التي شهدت خلع خليفتين: عمّه السلطان عبد العزيز، الذي قتل إثر خلعه، وقيل انتحر، وشقيقه السلطان مراد الخامس، الذي أصيب باختلال عقلي. وكان الصدر الأعظم مدحت باشا وراء خلعهما وتنصيب عبد الحميد على رأس السلطنة، كما كان وراء فرض العمل بالدستور، والمسؤول عن دخول الإمبراطورية في حرب خاسرة ضدّ روسيا سنة ١٨٧٧. ولكلّ هذه الأسباب، قرّر السلطان عبد الحميد إبعاد مدحت باشا عن الصدارة، وتعليق العمل بالدستور بدعوى أنّ النظام البرلماني لا يناسب بلدا تتعدّد فيه القوميّات. وقرّر اعتماد سياسة مركزيّة واستبداديّة تقوم على الجرناليّة والمكتوبجيّة والدراويش الرحّل، وسلك سياسة إسلاميّة وعربيّة، حيث أحاط نفسه ببعض المستشارين العرب، وأحي مؤسّسة الخلافة، وتبنّى فكرة الجامعة الإسلاميّة للحفاظ على كيان الإمبراطورية أمام الأطماع الخارجيّة المتزايدة، والحركات الانفصاليّة والاستقلاليّة ذات الطابع القومي.

تزايد في العهد الحميدي نشاط الجمعيّات القوميّة السريّة في صفوف الأرمن والبلغار والروم، وكانت تعرف باسم "كوميته" Comité، ويعرف الداخل فيها باسم "كوميته جي".[١] ساهمت هذه الجمعيّات في إضعاف نظام السلطان عبد الحميد، ولكنّ سقوطه كان على يد "جمعيّة الاتحاد والترقّي" التركيّة، التي نجحت في إجباره على إرجاع العمل بالدستور سنة ١٩٠٨، وأبعدته نهائيًا عن الحكم سنة ١٩٠٩. وعرف العرب بدورهم هذا الشكل التنظيمي المتقدّم المستوحى من الغرب، إذ تشكّلت الجمعيّات السريّة القوميّة في أوروبا في أوائل القرن ١٩ في شكل منتديات ثقافيّة مفتوحة، ثمّ تحوّلت إلى جمعيّات إصلاحيّة، وتطوّرت بعد ذلك إلى جمعيّات سريّة ذات طابع ثوري، وكان خاضعة في معظمها لتأثير الماسونيّة.[٢]

تعدّدت الدراسات حول الجمعيّات القوميّة العربيّة، إذ لا غنى للباحث في تاريخ حركة العرب القوميّة من التعرّض إليها، غير أنّ هذه الجمعيّات لم تفرد بدراسة خاصّة تغطّي كامل فترة حكم السلطان عبد الحميد. وظلّ الغموض يلفّ تاريخها وطبيعتها، وحتّى أسماءها وأهميّتها، فجورج أنطونيوس مثلا، وهو من أقدم مؤرّخي حركة اليقظة العربيّة وأبرزهم، يرى أنّ الجمعيّات القوميّة العربيّة ظهرت قبيل وصول السلطان عبد الحميد إلى الحكم، ثمّ تراجع تأثيرها في نموّ الوعي القومي، وأصابها الركود، بسبب سياسته الاستبداديّة والإسلاميّة، واكتفى بذكر جمعيّة بيروت وجمعيّة نجيب عازوري.[٣]

وانفرد المؤرّخ زين نور الدين زين برأي مناقض تماما للأطروحة السّابقة، حيث يرى أنّ الجمعيّات العربيّة التي ظهرت قبل ارتقاء عبد الحميد إلى الحكم، وخلال عهده، لم تكن ذات طابع قومي، استقلالي أو انفصالي، وإنّما كانت جمعيّات إصلاحيّة لا تعبّر عن يقظة قوميّة بل عن تيّقظ ووعي بفساد الحكم التركي، وهو ما يفسّر تمسّك المسلمين بالإطار العثماني، وارتباط المسيحيين العرب بالإطار السوري.[٤]

فما هي طبيعة الجمعيّات العربيّة التي ظهرت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني من حيث التركيبة والأهداف: هل كانت جمعيّات طائفيّة أم قوميّة؟ جمعيّات إصلاحيّة أم ثوريّة؟ جمعيّات اتّحاديّة أم انفصاليّة؟ وإلى أيّ مدى كانت مرتبطة بسياسة عبد الحميد بوجهيها الاستبدادي والإسلامي؟

أولاً: الجمعيّات العربيّة قبيل وصول السلطان عبد الحميد إلى الحكم وخلال بداية عهده

١/١-النهضة الثقافيّة في بلاد الشام وبداية التيقّظ القومي

"بدأت قصّة الحركة القوميّة للعرب في بلاد الشام سنة ١٨٤٧م بإنشاء جمعيّة أدبيّة قليلة الأعضاء في بيروت برعاية أمريكيّة".[٥] ينطلق المسيحي اللبناني جورج أنطونيوس من هذا التحديد الدقيق ليبيّن أنّ "اليقظة" القوميّة العربيّة، وهو المصطلح الذي ساهم في نحته وتجذّره، بدأت في أواسط القرن التاسع عشر في إطار الانفتاح على الرأسماليّة الغربيّة التي أفرزت مفهوم "الدولة القوميّة"، ويرى أنّ المسيحيين العرب والشوام تحديدًا مثّلوا الحاضنة الاجتماعيّة التي احتضنت هذه اليقظة، وذلك برعاية من المبشّرين الأمريكيين والفرنسيين، ويربط أخيرا ظهور هذه اليقظة القوميّة بتأسيس أولى الجمعيّات الأدبيّة.

يدحض المؤرّخ زين نور الدين زين هذه المسلّمات جملة وتفصيلاً، إذ يرى أنّ فكرة القوميّة بمفهومها العلماني الغربي لم يكن لها أيّ أثر في الفكر السياسي داخل الإمبراطورية العثمانيّة في القرن التاسع عشر، لأنّ نظام "الملل" هو الذي كان سائدا بها، وتحيل الملل إلى الطوائف الدينيّة لغير المسلمين كملّة الروم وملّة الأرمن وملّة اليهود، أمّا عبارة "قوميّة" فتعني ديانة كلّ ملّة أو رعيّة.[٦] ويعني ذلك ضمنيّا أنّ الجمعيّات الثقافيّة

الأدبيّة التي ظهرت ببلاد الشام في منتصف القرن ١٩ لم تكن ذات صبغة قوميّة عربيّة بل كانت ذات صبغة طائفيّة ومحليّة باعتبارها ظاهرة مارونيّة وسوريّة، وأنّ الوعي القومي العربي، الذي جاء كردّ فعل على هيمنة القوميّة التركيّة لم يظهر في الحقيقة إلّا مع بداية القرن العشرين بالتزامن مع تكريس الاتّحاديّون لسياسة "التتريك". وقد وجد مثل هذا الاختلاف في صفوف القوميين العرب أنفسهم، حيث يتبنّى ساطع الحصري الرأي الأوّل، فيرى بأنّ نشوء فكرة القوميّة العربيّة، بمعناها التّام، يعود إلى النصف الثاني من القرن العشرين،[٧] في حين يرى محمد عزّت دروزة أنّ الانبعاث الصحيح للحركة القوميّة كان غداة إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ و"كردّ فعل للحركة القوميّة التركيّة التي اشتدّت كذلك بعد هذا الإعلان".[٨]

يحيل مفهوم "اليقظة" إلى النهوض والانبعاث بعد فترة من السبات والضمور، وينطبق ذلك على القوميّة العربيّة التي تكوّنت تاريخيّا منذ العصر العبّاسي الأوّل بوصفها ردّ فعل على النزعة الشعوبيّة التي انتشرت بين الموالي،[٩] بل إنّ التكوين التاريخي للأمّة العربيّة يعود، حسب تحليل المفكّر سمير أمين، إلى صدر الإسلام عندما نشأت القوميّة العربيّة على يد التجّار المحاربين، ثمّ اضمحلّت أو تلاشت، وهي قادرة على الانبعاث من جديد كلّما وجدت الطبقة الاجتماعيّة الحاضنة، سواء كانت البورجوازيّة الرأسماليّة أو غيرها.[١٠] وقد تشكّلت هذه الحاضنة الاجتماعيّة الجديدة من النخب المسيحيّة السوريّة، التي كانت أكثر انفتاحًا على الرأسماليّة الأوروبيّة وأكثر ارتباطا بالمصالح التجاريّة والصناعيّة الغربيّة، وأكثر وعيا بمكانتها الهامشيّة في المحيط العثماني، وأكبر إسهاما في حركة الإحياء الثقافي واللغوي. وجدت فكرة القوميّة أيضًا رواجًا في صفوف بعض الفئات والشرائح الاجتماعيّة الأخرى مثل الضبّاط العرب في الجيش العثماني، النخب المسلمة المتخرّجة من المدارس العثمانيّة في سوريا، وبعض الأعيان التقليديين الذين باتت مكانتهم مهدّدة بالتهميش نتيجة تأثير الانفتاح الاقتصادي.[١١]

جاء إنشاء هذه الجمعيّات تتويجًا لحركة النهضة الثقافيّة التي عرفتها بلاد الشام منذ ثلاثينات القرن ١٩، أي خلال ولاية إبراهيم بن محمد علي باشا (١٨٣١-١٨٤٠)، الذي اتّسم عهده على رأس ولاية الشام بجوّ من التسامح ساهم في عودة البعثات التبشيريّة المسيحيّة إلى النشاط، ولا سيّما المبشّرين الإنكليز والأمريكان الذين عملوا على نشر المذهب البروتستانتي في صفوف المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك. اهتمّ إبراهيم باشا بالتعليم، فأنشأ المدارس الابتدائيّة بجميع أنحاء الشام، إضافة إلى بعض الكلّيات في دمشق وحلب وأنطاكيا. وأولى المبشّرون الأمريكيّون عناية فائقة باللغة العربيّة، لأنّها ضروريّة لنشر تعاليم الدين المسيحي بلغة السكان الأصليين بعيدا عن تعاليم البابا التي كانت تروّج باللغات القديمة (اللاتينيّة والسريانيّة واليونانيّة). وقاموا سنة ١٨٣٤ بنقل مطبعتهم من مالطا إلى بيروت، فساعدهم ذلك على طباعة أمّهات الأدب العربي، وترجمة الكتب، وترويج الكتب المدرسيّة، بفضل مجهود عدّة مستشرقين على رأسهم "كورنيليوس فان ديك" وبعض المثقّفين اللبنانيين أبرزهم فارس الشدياق، وخصوصا ناصيف اليازجي وبطرس البستاني، اللذان تكفّلا صحبة الأمريكي ايلي سميث بتعريب التوراة. وتفوّق المبشّرون الأمريكيّون في نشر التعليم، فأنشؤوا عدّة مدارس في بيروت والقدس وجبل لبنان. وتوّجوا ذلك بإنشاء "الكلّية البروتستانتيّة السوريّة" في بيروت سنة ١٨٦٦ (الجامعة الأمريكيّة حاليا) التي اعتمدت في بداياتها تدريس العلوم باللغة العربيّة.[١٢]

ساهم المسيحيّون الكاثوليك بدورهم في حركة الإحياء الثقافي واللغوي، حيث أعاد الآباء اللعازاريّون فتح كلّيتهم الخاصّة بالذكور في عين طورة (عنطورة)، وأصبح الموارنة أكثر اهتماما بالتعليم وبناء المدارس. أمّا الدور الأبرز في هذا المجال، فقد قام به اليسوعيّون، حيث أعادوا فتح مدارسهم القديمة في جبل لبنان، وأسّسوا مدارس جديدة في بيروت وحلب ودمشق، ثمّ نقلوا مدرسة غزير (١٨٣٤) من جبل لبنان إلى بيروت سنة ١٨٧٤، وأصبحت تعرف بجامعة القدّيس يوسف، وأنشؤوا أوّل مطبعة لهم سنة ١٨٤٧.[١٣] ولئن كان إسهام هذه البعثات التبشيريّة في نشر الوعي القومي والسياسي محدودا أو مبالغ فيه، فإنّها ساهمت بصفة فعّالة في إحياء اللغة العربيّة ونشر التعليم وبالتالي في تكوين نخب جديدة تحمل نظرة مختلفة للتاريخ العربي، وتسبّبت من ناحية أخرى في تزايد الصراع والتنافس بين الطوائف، وفي تحفيز المسلمين لإنشاء المدارس الابتدائيّة والسلطانيّة (الثانويّة) والرشديّة (العسكريّة)، وهو ما هيّأهم لمواصلة تعليمهم العالي المدني والعسكري بإستانبول، وسنجد أثرهم بارزا في الجمعيّات القوميّة لاحقًا.[١٤]

٢/١-الجمعيّات الثقافيّة في النصف الثاني من القرن ١٩: جمعيّات طائفيّة أم قوميّة؟

ظهرت أولى الجمعيّات في هذا الإطار الفكري الملائم بمبادرة من المثقفين بطرس البستاني وناصيف اليازجي، حيث اقترحا على عناصر البعثة التبشيريّة الأمريكيّة إنشاء جمعيّة

علميّة لغايات تثقيفيّة وتعليميّة بحتة، فتكوّنت بذلك "الجمعيّة السوريّة لاكتساب العلوم والفنون" في جانفي ١٨٤٧، لتكون حسب أنطونيوس الجمعيّة الأولى من نوعها في بلاد الشام والبلاد العربيّة ككلّ. ويذكر الطيباوي أنّ هذه الجمعيّة تأسّست سنة ١٨٤٦، وكانت تسمّى "مجمع التهذيب"،[١٥] ولكن نعتقد أنّ الأمر يتعلّق بتسمية أوليّة لنفس الجمعيّة العلميّة، لأنّ اللجنة المشرفة على تكوينها بعثت منذ سنة ١٨٤٢، والأكيد أنّها قدّمت مقترحات مختلفة قبل أن يستقرّ الرأي على الصيغة الأخيرة، وهو ما تثبته المادة الأولى من قانونها الداخلي التي تقول: "هذا المحفل يدعى جمعية سورية لاكتساب العلوم والفنون". وتتمثّل مقاصد هذه الجمعيّة في: "أوّلا استفادة أعضائها من العلوم والفنون بواسطة مفاوضات ورسائل وخطابات وأخبار. ثانيا: جمع كتب وصحائف، سواء كانت طبعا أو خطّا، وعلى الخصوص ما كان منها في اللغة العربيّة".[١٦]

كانت جمعيّة نخبويّة لم يتعدّ عدد أعضائها خمسين عضوا سنة ١٨٤٩، وكان على رأسها كورنيليوس فان دايك ثمّ ايلي سميث، ومن أعضائها البارزين أيضًا نذكر: الدكتور ويليام طومسون وناصيف اليازجي وبطرس البستاني ونوفل نوفل وسليم نوفل، وهو مستشار البلاط القيصري في بطرسبرغ، ونعمة ثابت وميخائيل شحادة، وجلّهم من بيروت مع بعض المراسلين من دمشق وصيدا وطرابلس.[١٧] ويبدو حسب أنطونيوس أنّها كانت جمعيّة خاصّة بالمسيحيين العرب والأمريكيين، مع وجود إنكليزي واحد هو "الكولونيل تشرشل المشهور"،[١٨] وقد ذهب في ظنّ معظم الباحثين أنّ الأمر يتعلّق بالقائد الإنكليزي "ونستون تشرشل"، في حين أنّ العضو المعنيّ هو الكولونيل تشارلز هنري تشرشل، الذي أقام لمدّة عشر سنوات بجبل لبنان، ودوّن مشاهداته في كتاب نشره بلندن سنة ١٨٥٣.[١٩] وعلى الرغم من طابعها الطائفي البروتستانتي فإنّها ضمّت حسب الباحث الأرمني يغيا نجاريان، عضوا مسلما هو الشيخ يوسف الأسير أصيل مدينة صيدا، ولم تكن مع ذلك جمعيّة عربيّة خالصة، فبالإضافة إلى الأمريكيين نجد فيها عناصر أرمنيّة فاعلة مثل يعقوب آغا ويوحنّا ورتبات وإسكندر إبكاريوس.[٢٠] ويعتبرها جلّ الملاحظين مجرّد جمعيّة سوريّة محليّة ذات أهداف تربويّة وتهذيبيّة، وذات طابع طائفي، وتبرز أهميّتها في استقطابها لأبناء العائلات البورجوازيّة التجاريّة والربويّة الصاعدة في بيروت، وهي الشريحة الاجتماعيّة التي تكفّلت باحتضان اليقظة القوميّة ورعايتها، وخصوصا في الدور الكبير الذي لعبه بطرس البستاني في إحياء اللغة العربيّة، ودعوة العرب السوريين إلى اليقظة الفكريّة ونبذ الصراعات الطائفيّة.[٢١]

احتذى الآباء اليسوعيّون مثال الأمريكيين، فقاموا سنة ١٨٥٠ ببعث جمعيّة ذات طابع ثقافي أدبي في بيروت، أطلقوا عليها اسم "الجمعيّة المشرقيّة"، وخصّصوا لها مقرّا في ديرهم وزوّدوها بالكتب. كانت حسب سجلّها المسمّى "تقويم الوقائع" مهتمّة بنشر التمدّن والعلوم والمعارف، وخصّصت أغلب المحاضرات إلى التعريف بتاريخ سورية وبعض العلوم الطبيّة والفلكيّة. ضمّت هذه الجمعيّة بعض الأجانب مثل الدكتور "سوكه" والأب هنري دي برونيير، الذي تولّى إدارة هذه الجمعيّة وتسييرها، في حين تولّى رئاستها في البداية الشيخ الياس الدحداح ثمّ إبراهيم أفندي، وهما من العائلات الإقطاعية التقليديّة. ومن أعضائها نذكر: نقولا منسا وداود برتران ومارون النقّاش وحبيب اليازجي وطنّوس الشدياق وضاهر الشدياق وابراهيم النجّار وابراهيم مشاقة، وجميعهم من المسيحيين الكاثوليك، ويعني ذلك أنّها كانت جمعيّة طائفيّة بالأساس رغم اهتمامها باللغة العربيّة وبأمجاد العرب وحضارتهم. وقد توقّف نشاطها حسب سجلّها في غضون سنة ١٨٥٢.[٢٢]

ظهرت إثر حلّ هاتين الجمعيّتين جمعيّة جديدة أكثر تنظيما وتطوّرا، وهي "الجمعيّة العلميّة السوريّة" التي يكتنف تاريخ تأسيسها بعض الغموض والتضارب، فقد تأسّست حسب أنطونيوس سنة ١٨٥٧ ثمّ توقّفت سنة ١٨٦٠ بسبب الحرب الأهليّة، لتعود بعد ذلك بفترة وجيزة وتحصل على الاعتراف الحكومي سنة ١٨٦٨، أمّا نجاريان فيرى أنّ الجمعيّة الأولى (١٨٤٧) توقّفت سنة ١٨٥٧ تاريخ وفاة ايلي سميث وليس سنة ١٨٥٢ كما يذكر أنطونيوس وغيره، وعاودت نشاطها سنة ١٨٦٧، وهو التاريخ الذي أقرّه أيضًا كرم البستاني لتحديد افتتاح الجمعيّة العلميّة السوريّة. ويقول الطيباوي إنّ الجمعيّة العلميّة السوريّة ظهرت سنة ١٨٦٨ على أنقاض جمعيّة سابقة مماثلة، ولم يحدّد إن كان المقصود جمعيّة ١٨٤٧ أو جمعيّة ١٨٥٧ المفترضة، وكتأكيد لهذا الغموض يذكر الدوري أنّ الجمعيّة العلميّة ظهرت بين ١٨٥٢ و١٨٦٨.[٢٣]

أصدر يوسف قزما خوري سنة ١٩٩٠ كتابا جمّع فيه أعمال الجمعيّة العلميّة السوريّة، التي أصدرتها سنتي ١٨٦٨ و١٨٦٩ تحت اسم "مجموعة العلوم"، وبيّن في مقدّمته أنّ هذه الجمعيّة، التي ظهرت رسميّا في جانفي ١٨٦٨، لا تتشابه مع جمعيّة ١٨٤٧ إلّا في مقاصدها وبعض نواحي تنظيمها.[٢٤] ولا ينفي ذلك تأسيس بعض الجمعيّات الأخرى التي لم يكتب لها النجاح بين ١٨٥٢

و١٨٦٨، على غرار "العمدة الأدبيّة لإشهار الكتب" و"الجمعيّة العلميّة" و"الجمعيّة الأدبيّة" و"الجمعيّة الانجيليّة"،[٢٥] ويوضّح خطاب محمد الأمين أرسلان، الذي ألقاه في الاجتماع الثاني للجمعيّة العلميّة السوريّة بتاريخ ٢٢ جانفي ١٨٦٨ أنّها جمعيّة مستحدثة ولا علاقة لها بأيّة جمعيّة أخرى سواء بالداخل أو بالخارج.[٢٦]

حدّد القانون الداخلي طبيعة الجمعيّة وأهدافها، وواجبات الأعضاء، ونظام الاجتماعات، وجاء في مفتتحه أنّ هذه الجمعيّة "عبارة عن شركة مركّبة من أعضاء مختلفة محليّة وغير محليّة للقيام بما يقتضي لانتشار المعارف من علوم وفنون". وتفيد مجموعات أعمالها أنّ ١٢ عضوا مؤسّسا قرّروا بعد التشاور بعث هذه الجمعيّة، وتقدّموا بطلب الرخصة القانونيّة لنشاطها من والي الشام راشد باشا.[٢٧] وعقدت أوّل اجتماع لها يوم ١٥ جانفي ١٨٦٨، وفيه تمّ انتخاب عمدتها التي تكوّنت من: الأمير محمد الأمين أرسلان (رئيس)، وحسين بيهم وسليم البستاني وحنين الخوري (مميّزون)، ورزق الله خضرا (أمين صندوق). وتكوّن مكتبها سنة ١٨٦٩ من: حسين بيهم (رئيس)، وسليم بستاني (نائب رئيس)، والياس كركبه وحنين الخوري وعبد الرحيم بدران (مميّزون)، وسليم شحادة وموسى فريج (كاتبان)، وابراهيم اليازجي وسليم الخوري (مصحّحان). وبلغ عدد أعضائها خلال هاتين السنتين ١١٦ عضوا بمن في ذلك الأعضاء غير المحليين (من الإسكندرية بالخصوص) وبعض رجال الدولة مثل والي لشام ومتصرّف لبنان، ويمثّلون مختلف الطوائف مع تفوّق واضح للمسيحيين.[٢٨] ورغم احتكار الرئاسة من الأعيان التقليديين (عائلة أرسلان الدرزيّة وعائلة بيهم المسلمة)، فإنّ الجمعيّة ضمّت بالخصوص النخب المدينيّة الصاعدة (تجّار وأصحاب مهن حرّة وصحفيين) التي تسعى إلى تغيير المجتمع باعتماد نموذج التقدّم الغربي.[٢٩]

كانت هذه الجمعيّة حسب أنطونيوس وغيره أوّل مظهر للوعي الوطني الجماعي، ومهد الحركة القوميّة الوليدة إذ ظهر في إحدى اجتماعاتها أوّل صوت للحركة القوميّة العربيّة التي تجاوزت الأفق السوري الضيّق متجسّدا في بائيّة إبراهيم اليازجي التي يقول مطلعها:

تنبّهوا واستفيقوا أيّها العرب
فقد طمى الخطب حتّى غاصت الرّكب

وهي قصيدة طويلة تغنّى فيها بمآثر العرب وأمجادهم، وندّد بوضعيّة العرب الدونيّة في ظلّ الإمبراطورية العثمانيّة داعيا إلى الثورة ضدّ الغطرسة التركيّة. إلّا أنّ البعض شكّك في نسبتها إلى المسيحي اليازجي اعتمادا على ما ذكره أحد المعاصرين وهو خليل سركيس الذي نسبها إلى أحد علماء المسلمين، كما اعتبر أنّ أوّل نداء استقلالي لم يصدر عن هذه الجمعيّة بل عن بعض مسلمي حلب منذ سنة ١٨٥٨.[٣٠] ونشير في الأخير إلى أنّ هذه الجمعيّة، التي مثّلت حلقة انتقاليّة بين الجمعيّات الطائفيّة والجمعيّات القوميّة، توقّفت عن النشاط في أواخر سنة ١٨٧٣ لتحلّ محلّها أشكالا أرقى من حيث التنظيم وأساليب النشاط وطبيعة الأهداف.

١/٣-إشكاليّة "جمعيّة بيروت" السريّة وظهور الجمعيّات القوميّة ذات الطابع السياسي

هي جمعيّة مهمّة ومحلّ جدل متواصل حظيت باهتمام خاص من المؤرّخين جورج أنطونيوس وزين نور الدين زين، اللذان تمكّنا من محاورة أحد مؤسّسيها وهو فارس نمر. ويبدو أنّها جمعيّة ثقافيّة أدبيّة في الظاهر، وجمعيّة سياسيّة ذات طابع قومي في الواقع. اختارت هذه الجمعيّة النشاط السرّي، وعرفت باسم المدينة التي ظهرت فيها، ولكن لا يعني ذلك أنّ اسمها الأصلي هو "جمعيّة بيروت السريّة" لأنّ اسمها الحقيقي غير معروف مثلما أشار إلى ذلك المستشرق الروسي "كوتلوف"، الذي اعتبرها أوّل جمعيّة عربيّة سياسيّة طرحت قضيّة استقلال العرب القومي، وجسّدت بمناشيرها الفكرة القوميّة العربيّة، لكنّها كانت مع ذلك عبارة عن تنظيم عديم الهيكلة والمبادئ التنظيميّة ولا حتّى تسمية محدّدة.[٣١]

تكوّنت هذه الجمعيّة حوالي سنة ١٨٧٥، على يد نخبة من الشبّان المسيحيين المتخرّجين من الكليّة السوريّة البروتستانتيّة، وعددهم ٥ حسب أنطونيوس، و١٢ عضوا حسب زين نور الدين زين وأبرزهم: فارس نمر ويعقوب صرّوف وشاهين مكاريوس وإبراهيم اليازجي وإبراهيم الحوراني. ويعتبر إلياس حبالين أستاذ اللغة الفرنسيّة بالكليّة السوريّة الأب الروحي لهذه الجمعيّة. وقد انطلقت في البداية في شكل تنظيم سرّي يتكوّن من نخبة مسيحيّة متخرّجة من الكليّة السوريّة الإنجيلية، اجتمعت على فكرة تحرير لبنان من الحكم التركي، ثمّ حاولت هذه الجمعيّة استقطاب العناصر غير المسيحيّة، وذلك برفع شعار العروبة الجامع لجميع العرب المسيحيين والمسلمين، كما عملت، حسب شهادة فارس نمر، على الانفتاح على المحفل الماسوني، حيث حاولوا استمالة الأعضاء المسلمين في المحفل، واتّفقوا على محاربة الاستبداد التركي، وتحقيق المساواة بين العرب والترك، ولكنّهم اختلفوا على الهدف الأعلى للجمعيّة وهو طرد الأتراك من ولاية سوريا التي كانت تشمل

آنذاك سنجق لبنان المستقل ذاتيّا.[٣٢] ولم تنجح هذه النخبة المسيحيّة الشابّة في استقطاب سوى مسلم واحد هو حسين بيهم التاجر البيروتي، في حين كان عباس الأزهري ومنح الصلح ماسونيين دون دليل على انضمامهما إلى جمعيّة بيروت. وقد اعتمدت هذه الجمعيّة في نشاطها على كتابة المنشورات وتعليقها على الجدران، وهو نشاط مستحدث لم يتم اعتماده سابقا سوى سنة ١٨٧٨ في دمشق عندما وزّع مجهولون منشورات تندّد بحكم الوالي جودت باشا وتدعو السوريين إلى التخلّص من العثمانيين.[٣٣]

حفظت الأرشيفات الغربيّة ثلاثة منشورات تعود إلى الفترة الممتدّة بين جوان وديسمبر ١٨٨٠ وتنسب عادة إلى جمعيّة بيروت، وقد تولّى عبد اللطيف الطيباوي نشرها وتحليلها. وجّه المنشورين الأوّلين إلى "أبناء سورية" لدعوتهم إلى التيقّظ وعدم الثقة في الأتراك، وتضمّنا دعوة جليّة إلى الإصلاح وأخرى خفيّة إلى الإدارة الذاتيّة. وتضمّن المنشور الثاني عبارات مستوحاة من صحيفة "نفير سوريا" لصاحبها بطرس البستاني مثل "النخوة العربيّة" و"الحميّة السوريّة".[٣٤] وكان المنشور الثالث أكثر عمقا وأمتن أسلوبا، وجاء في مستهلّه:

"يا أهل الوطن، قد علمتم بفجور الأتراك وظلمهم، وإنّ فئة منهم قد تحكّمت في رقابكم واستعبدتكم، وأنّهم قد درسوا شريعتكم، وامتهنوا حرمة كتبكم...وبكم أهلت البلاد وامتدت الفتوحات، وعلى قواعد لغتكم بنيت أصول الخلافة التي اختلسها منكم الأتراك". وبالإضافة إلى فكرة "الوطن السوري"، التي ظهرت في هذا المنشور، نجد أيضًا تلويحا صريحا باستعمال القوّة الثوريّة في حالة تجاهل مطالب الجمعيّة، التي نظمتها على النحو الآتي:

- استقلال نشترك به مع إخواننا اللبنانيين بحيث تضمّنا الصوالح الوطنيّة.
- أن تكون اللغة العربيّة رسميّة في البلاد، وأن يحقّ لأبنائها الحريّة التامّة في نشر أفكارهم ومؤلّفاتهم وجرنالاتهم بمقتضى واجبات الإنسانيّة ومقتضيات التقدّم والعمران.
- أن تنحصر عساكرنا في خدمة الوطن وتتخلّص من عبوديّة الرؤساء الأتراك.[٣٥]

يلاحظ المتأمّل لهذا المنشور الثالث أنّ المطالب الواردة في ختامه لم تكن متطابقة تماما مع ما ورد في مقدّمته من قراءة لواقع العرب السوريين في ظلّ الحكم التركي، فالمقدّمة عبّرت بكلّ جلاء عن وجهة نظر الأعيان المسلمين المستائين من اغتصاب الخلافة والحدّ من حكم الشريعة وسوء التصرّف بالأوقاف، وإرسال الجنود السوريين إلى ميادين القتال في بلاد بعيدة، ويستبعد جدّا أن تكون مكتوبة من قبل الشبّان المسيحيين الدارسين بالكليّة السوريّة والمؤسّسين لجمعيّة بيروت. أمّا المطالب فلم ترتبط بذلك التحليل، حيث لم تتضمّن مطلب إعادة الخلافة للعرب مثلا أو إعلاء شأن الشريعة في المحاكم النظاميّة واحترام الأوقاف، بل جاءت في صيغة معتدلة وجامعة ومعبّرة عن الحدّ الأدنى المشترك بين المسلمين والمسيحيين: الاستقلال الداخلي في إطار "الوطن السوري" وإعلاء شأن اللغة العربيّة.

فهل تبنّت جمعيّة بيروت، النابعة من النخبة المسيحيّة، قضايا تهمّ المسلمين بهدف توسيع قاعدتها وإنجاح مطلب الوطن السوري؟ أم إنّها وقعت تحت سيطرة جمعيّة سريّة أخرى تتكوّن بالأساس من أعضاء مسلمين، وإن صحّ ذلك، ما هي هذه الجمعيّة المجهولة؟

شهدت سوريا منذ اندلاع الحرب الروسيّة العثمانيّة وتعليق العمل بالدستور، نشاطا حثيثا في صفوف المسلمين تمثّلت بالخصوص فيما يعرف بحركة الوجهاء، وهي حركة استقلاليّة ظهرت سنة ١٨٧٧ وكشفها عادل الصلح نقلا عن شهادة والده منح الصلح، وذلك في كتابه "سطور من الرسالة" (١٩٦٦). اتّفق وجهاء صيدا وبيروت ودمشق وغيرها من مدن الشام بعد مشاورات توّجت باجتماعهم في "مؤتمر دمشق" على السعي إلى تحقيق استقلال سورية في حال تعرّض البلاد لخطر استيلاء دولة أوروبية، وبخلاف ذلك يكون الاتّجاه نحو الحكم الذاتي في إطار الدولة العثمانيّة. وأجمع الأعيان، بقيادة أحمد الصلح، على أن يكون الأمير عبد القادر الجزائري، نزيل سوريا، على رأس هذه الإمارة العربيّة.[٣٦] وبالتوازي مع حركة الأعيان المسلمين ظهرت مبادرة أخرى تزعمّها الماروني يوسف كرم، الذي كان يسعى إلى قيام كنفدرالية سوريّة على النمط الألماني بإقامة إمارات مستقلة في بلاد الشام تخضع لحكم إسلامي برآسة الأمير عبد القادر الجزائري. وكان الأمير متردّدا ويخيّر انتظار نهاية الحرب الروسيّة العثمانيّة، لاختيار الشكل المناسب للاستقلال، ومع تأكّد سلامة الإمبراطورية من الاضمحلال (مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨) تلاشت هذه الحركة لزوال مسبّباتها، وبالتالي لا يمكن أن تكون معنيّة بالمناشير التي ظهرت سنة ١٨٨٠، ولكن لا يستبعد أنّ بعض أعضائها نشطوا في جمعيّة جديدة ظهرت سنة ١٨٧٨.[٣٧]

شهدت هذه السنة تعيين مدحت باشا على رأس ولاية سوريا (نوفمبر ١٨٧٨- ديسمبر ١٨٨٠)، وفي عهده ظهرت المنشورات المنسوبة إلى جمعيّة بيروت. سلك مدحت باشا سياسة إصلاحيّة تحرّرية لم ترض علماء المسلمين، ولكنّها أتاحت جوّا من الحريّة ساهم في تنامي نشاط الجمعيّات السريّة. وقد ساعد هذا الوالي الطموح، والخصم الأبرز آنذاك للسلطان عبد الحميد، على تأسيس "جمعيّة المقاصد الخيريّة" سنة ١٨٧٨، ذات الصبغة التعليميّة في الظاهر، والتي كانت لها حسب شهادة الأمير مصطفى الشهابي حلقة سياسيّة سريّة تهدف إلى إحياء الدستور.[٣٨] وربّما وظّف مدحت باشا هذه الجمعيّة لأغراض أخرى، حيث يقول سليم سركيس، الذي أقام في دمشق سنة ١٨٨٧: "أراد مدحت باشا أن يقوم في سوريا بما عجز عنه في الأستانة، وأحبّ أن يعرف إذا كان لأهالي سوريا استعداد للثورة ضدّ الحكومة التركيّة، حتّى إذا وجد منهم الميل إلى ذلك عمد إلى الاستقلال، فيجعل سوريا نظير مصر ويكون هو الحاكم عليها...وعمد إلى تأليف جمعيّة غايتها نشر إعلانات".[٣٩]

ذكر وكيل القنصل الإنكليزي في بيروت جون ديكسون في ختام بحثه، أنّ تذمّر السوريين بدأ قبل مجيء مدحت باشا بفترة طويلة، وعندما قام مدحت باشا بتأسيس جمعيّة المقاصد استقطبت هذه الجمعيّة المتخفيّة وراء الأعمال الخيريّة بعض الناقمين، ولا يستبعد أن يكون تأسيسها تمّ بتخطيط من جمعيّة بيروت الثوريّة، وحمّلها مسؤولية ترويج المنشورات.[٤٠] وتوصّل القنصل الفرنسي في بيروت إلى نفس النتيجة اعتمادا على شهادة حمدي باشا (خلف مدحت)، وكذلك رستم باشا متصرّف لبنان، فاتّهم جمعيّة المقاصد بترويج المناشير بعد نجاحها في إدخال بعض العناصر المسيحيّة لتغطية دسائسها وأغراضها السياسيّة، وخلصت السلطة العثمانيّة لنفس النتيجة فأغلقت مكاتب جمعيّة المقاصد ومنعتها من الاشتغال بالتعليم، وحوّلت أموالها ووظائفها إلى مجلس المعارف الرسمي.[٤١] ونجد شهادة أخرى ذكرها محمد رشيد رضا في مجلة "المنار" نقلا عن والده، ومفادها أنّ مدحت باشا كان يسعى إلى تقليد التجربة المصريّة الاستقلاليّة بسوريا، فتكوّنت في عهده جمعيّة سريّة تضمّ وجهاء المسلمين والمسيحيين وكانت تسعى إلى جعل مدحت خديو سوريا، في حين سعى بعض الماسون إلى أن يكون الأمير عبد القادر الجزائري هو الخديو على سوريا. ويضيف بأنّ العارفين بدخائل السياسة في ذلك الوقت أخبروه "أنّ السلطان عبد الحميد هو الذي أوجد تلك الإشاعة في سورية ليتوسّل بها إلى إخراج مدحت من سورية لأجل الانتقام منه"، في حين يعتبر مدحت باشا أنّ هذه الدسائس من عمل القوى الاستعماريّة.[٤٢]

يستفاد ممّا تقدّم أنّ كتابة المناشير لم تكن بواسطة النخبة المسيحيّة فقط، بل إنّ البصمة الإسلاميّة واضحة في المنشور الثالث بالخصوص، وقد تكون المشاركة الإسلاميّة عن طريق جمعيّة المقاصد الخيريّة، وهو أمر شكّك فيه بعض الباحثين الجادّين،[٤٣] أو عن طريق جمعيّة إسلاميّة أخرى مثل "جمعيّة حفظ حقوق الملّة العربيّة" التي سنتحدّث عنها لاحقا. ويتبيّن أيضًا أنّ مدحت باشا كان يسعى إلى تركيز "خديويّة سوريّة" فأحكم توظيف جمعيتي بيروت والمقاصد لخدمة سياسته، إذ كانت المناشير تظهر كلّما توتّرت علاقته بالسلطان عبد الحميد.[٤٤]

أشارت تقارير القناصل إلى أنّ تأثير المنشورات على الرأي العام كان سطحيّا، إذ أنّ أغلب المسلمين كانوا مع الحفاظ على رابطة الخلافة العثمانيّة، أمّا المؤرّخين فقد اختلفوا حول تحديد قيمة جمعيّة بيروت ودورها في الحركة القوميّة، حيث يعتبرها أنطونيوس أوّل جهد منظّم في تاريخ حركة العرب القوميّة، وأوّل جمعيّة تأسّست والهدف السياسي غايتها الأولى،[٤٥] في حين يرى زين نور الدين زين أنّها "مجرّد ظاهرة مسيحيّة لبنانيّة"، ولا يمكن اعتبارها أوّل جمعيّة قوميّة ناهضت الحكم التركي مستندا في ذلك إلى فارس نمر، الذي بيّن له أنّ فكرة القوميّة لم تكن قد وجدت طريقها بعد، وأنّ علاقات الناس ما زالت قائمة على أساس ديني طائفي يستحيل معه الحديث عن وحدة قوميّة.[٤٦] وانفرد المؤرّخ الأرمني يغيا نجاريان بتقديم فرضيّة طريفة تقول إنّ جمعيّة بيروت المجهولة الاسم كانت في الحقيقة الجناح السياسي السرّي لجمعيّة أدبيّة علنيّة أدارها أديب إسحاق بين ١٨٧٤ و١٨٨٥، وهي جمعيّة "زهرة الآداب"، التي نشط فيها جرجي زيدان وباقي المجموعة التي ذكرنا أسماءها. وكان أديب إسحاق، الذي ترأس الجمعيتين منذ سنة ١٨٧٤ لا سنة ١٨٧٥ كما ذكر أنطونيوس أو سنة ١٨٧٦ كما ذكر زين نور الدين زين، أوّل المنتمين إلى المحفل الماسوني، وبوفاته توقّف نشاط "زهرة الآداب" وجناحها السرّي. وهاجر أغلب الناشطين بهذه الجمعيّة السريّة إلى القاهرة سنة ١٨٨٥ ليؤسّسوا هناك جريدة "المقطّم"، ويتابعوا إصدار "المقتطف" التي ظهرت قبل ذلك في بيروت.[٤٧]

ومهما يكن من أمر فإنّ نداءات هذه الجمعيّة مثّلت أوّل صرخة استنفار أطلقتها الحركة العربيّة الوليدة إذا اعتبرنا الجانب الوجداني للقوميّة العربيّة كما يلحّ عليه أنطونيوس، وهي أوسع من مجرّد ظاهرة نخبويّة مارونيّة لبنانيّة، إذ كانت محاولة جريئة وواعية من النخبة الحضريّة المثقّفة المنفتحة على الثقافة الغربيّة وعلى الرأسماليّة الصاعدة وخصوصا على النشاط التجاري، وذلك من أجل توظيف فكرة "العروبة" الجامعة واعتمادها بديلا لإشكال الوضع الملّي الذي حاولت التنظيمات العثمانيّة استيعابه على قاعدة المساواة التمثيليّة. وكانت فكرة استقلال سوريا في صيغة "وطن" ملائمة لاحتياجات النخبة وتطلعاتها نحو تعميم نموذج متصرفيّة لبنان الاستقلالي، وفاتحة مشروع سياسي جديد سرعان ما أخذ في التبلور والتجذّر.(٤٨)

ثانيًا: الجمعيّات الناشطة بالخارج زمن السلطان عبد الحميد الثاني

١/٢-"جمعيّة سنة ١٨٩٥" بباريس

يقول أحمد عزّت الأعظمي، وهو أوّل من أشار إلى وجود هذه الجمعيّة: وعندما اشتدّ السخط في أواخر القرن التاسع عشر على حكومة تركيا المستبدّة أسّست الجالية السوريّة وفي مقدّمتهم خليل غانم في باريس سنة ١٨٩٥ "الجمعيّة الوطنيّة العربيّة" وأخذت تنظّم القيام بدعوة ثوريّة ضدّ الحكم التركي.(٤٩) وذكر بعد ذلك أنّ هذه الجمعيّة الوطنيّة نشرت سنة ١٩٠٦ منشورا موجّها إلى الدول العظمى، وهو أمر غير صحيح لأنّ بيان سنة ١٩٠٥ وليس ١٩٠٦ صدر عن "رابطة الوطن العربي" التي أنشأها نجيب عازوري كما سنبيّن لاحقا، والدليل على ذلك أنّ المقتطف الذي أورده الأعظمي نجده أيضًا في مقدّمة كتاب "يقظة الأمّة العربيّة" لعازوري.

أشار أنيس الخوري أيضًا إلى وجود هذه الجمعيّة اعتمادا على جريدة "المشير" (١٩ ديسمبر ١٨٩٦) التي ذكرت أنّ جماعة من شبّان العرب والأتراك اجتمعوا في باريس لتأسيس جمعيّة عربيّة وغايتها: الدفاع عن حقوق العرب جميعا مهما تباينت مذاهبهم، وحفظ الأمّة العربيّة تحت ظلّ الراية العثمانيّة في وضع قانون أساسي للخلافة، والمساواة بين العرب والترك، وإجراء الإصلاحات الواجبة بالطريقة الواقعة (أي بالفعل)، واستقلال كلّ ولاية من الولايات (العربيّة) بماليّتها وتخصيص ولايتها بوال عربي أو معاون عربي.(٥٠) وبيّن الخوري أنّ هذه الجمعيّة يمكن أن تكون نفس الجمعيّة التي أشار إليها الأعظمي باسم "الجمعيّة الوطنيّة العربيّة"، والتي تحدّثت جريدة "الجورنال" الفرنسيّة عن تأسيسها سنة ١٨٩٥ تحت اسم "عصبة الوطن العربي". وبالرجوع إلى هذه الجريدة وجدنا أنّ المقطع الذي ذكره الخوري نشر فعلا ولكن في وقت متأخّر (١٦ سبتمبر ١٩٣٧)، والجمعيّة المذكورة تسمّى: «Ligue de la patrie arabe» أي "رابطة الوطن العربي" أو "جامعة الوطن العربي، وقد حرّفها الأعظمي إلى "الجمعيّة الوطنيّة العربيّة"."(٥١) ووجدنا إشارات أخرى في دوريات فرنسيّة مختلفة، حيث ذكرت مجلة "دراسات" أنّ جامعة الوطن العربي تأسّست في باريس سنة ١٨٩٥ من قبل جمال الدين الأفغاني، وذكرت جريدة "هذا المساء" أنّ جامعة الوطن العربي التي تأسّست قبل عشر سنوات من قبل جمال الدين، توجّهت سنة ١٩٠٥ ببيان طالبت فيه باستقلال الدول العربيّة واتّحادها في إمبراطورية واحدة.(٥٢)

وبدا لنا بعد تفحّص هذه المعطيات أنّ هناك خلط ما، فجمعيّة ١٨٩٥ لم تكن لها أيّة علاقة بجامعة نجيب عازوري التي تأسّست سنة ١٩٠٤، لأنّه كان آنذاك بالقدس ولم ينتقل إلى باريس إلّا سنة ١٩٠٤، ثمّ إنّ اسم جامعته كان مستوحى من اسم جامعة فرنسيّة معادية لدريفوس وهي "جامعة الوطن الفرنسي"،(٥٣) وإذا علمنا أنّ هذه الجمعيّة الفرنسيّة تأسّست سنة ١٨٩٨ ردّا على تأسيس "رابطة حقوق الإنسان" المناصرة لدريفوس، فإنّه لا يمكن أن تكون سميّتها العربيّة موجودة قبل هذا التاريخ، فما هو الاسم الحقيقي لجمعيّة ١٨٩٥ إذن؟

يشير الأعظمي إلى أنّ مؤسّس هذه الجمعية هو خليل غانم، وهو مسيحي من بيروت كان نائبا عن سوريا في مجلس المبعوثان سنة ١٨٧٨، التجأ إلى أوروبا بعد تعطيل مجلس المبعوثان وأصدر في جنيف جريدة باسم "الهلال" ثمّ انتقل إلى باريس حيث أسّس جريدة "تركيا الفتاة" بالاتّفاق مع الأمير أمين أرسلان. وتعاون خليل غانم مع عدّة جرائد فرنسيّة، وكانت كتاباته تعبّر عن شعوره بالرابطة العثمانيّة.(٥٤) وفي سنة ١٨٩٥ ساهم خليل غانم في تأسيس جريدة "مشورت" في باريس بالتعاون مع أحمد رضا، المتأثّر بفلسفة "أوغست كونت" الوضعيّة، وأشهر ممثّلي جمعيّة "الاتحاد والترقّي" التركيّة في الخارج، وشارك خليل غانم في مؤتمر العثمانيين الأحرار الذي انعقد بباريس سنة ١٩٠٢ برئاسة الأمير صباح الدين ابن الداماد محمود باشا صهر السلطان عبد الحميد الثاني.(٥٥)

وتفيدنا شهادة رامزور أنّ النشاط الوحيد الذي قام به العرب في باريس تمثّل في بعث منظّمة تدعى "لجنة الإصلاح التركيّة السوريّة" بزعامة أمين أرسلان، والتي كانت جمعيّة إصلاحيّة عثمانيّة ليس لها دافع قومي حقيقي،(٥٦) وتؤكّد باحثة تركيّة أنّ

هذه الجمعيّة تأسّست بمبادرة من خليل غانم وأمين أرسلان، وأنّها التحقت سنة ١٨٩٦ بجمعيّة الاتّحاد والترقّي.(٥٧) وتتّضح بذلك كلّ الأمور، فخليل غانم ساهم بالفعل في تأسيس جمعيّة عربيّة معارضة للسلطان عبد الحميد سنة ١٨٩٥ بباريس تعرف باسم "لجنة الإصلاح السوريّة التركيّة"، وسرعان ما اندمجت في جمعيّة الاتّحاد والترقّي التركيّة التي كان غانم أحد أبرز منشّطيها من داخل جناح أحمد رضا. وكان الماروني خليل غانم حسب ألبرت حوراني "لا عروبيّا قبل كلّ شيء"، فهو يعتبر أنّ روح الاضطهاد تعاني منها جميع القوميّات العثمانيّة، وهو ينادي بالتّالي بالإصلاح في الإطار العثماني، أي إرجاع العمل بالدستور والقضاء على الاستبداد الحميدي.(٥٨) وقد كتب خليل غانم في جريدة "المشير" سنة ١٨٩٥ قائلا: "ولا نطلب انفصال العرب عن الأتراك لأنّ ذلك يؤول إلى الخراب والاندثار. بل نطلب ونتمنّى من صميم الفؤاد انضمام الملّتين بل ادغامهما الواحدة بالأخرى بحيث تكونان أمّة واحدة، ولكن على شرط المساواة في الحقوق والواجبات".(٥٩)

٢/٢-"جمعيّة رابطة الوطن العربي" بباريس (١٩٠٤)

تأسّست هذه الجمعيّة في باريس على يد المسيحي الماروني اللبناني نجيب عازوري، الذي شغل منصب نائب حاكم القدس قبل لجوئه إلى فرنسا سنة ١٩٠٤، ولم تتأسّس بسوريا كما زعم أوجين يونغ، كما لم تكن لها خلايا في الشام والعراق. وارتبطت هذه الجمعيّة التي تعرف أحيانا باسم "الحزب القومي العربي" بشخص نجيب عازوري الأوحد، ولم تذكر الدراسات المختلفة من شارك فيها من رجالات العرب سوى إبراهيم سليم النجار الذي ورد اسمه ضمن أعضاء الجمعيّة القحطانيّة فيما بعد. ولكنّه وجد مساندة من عدّة فرنسيين نشطوا في جمعيّته، وساهموا في مجلّته وأبرزهم أوجين يونغ الموظف السامي بالهند الصينيّة سابقا،(٦٠) وهي بالتّالي جمعيّة عربيّة خاضعة للتأثير الفرنسي، ويبرز ذلك في ثقافة مؤسّسها، وفي لغة منشوراتها، وفي رعاية الحكومة الفرنسيّة لها، وحتّى اسمها مستوحى، كما ذكرنا، من اسم "رابطة الوطن الفرنسي".

تعتبر رابطة الوطن العربي من الجمعيّات القليلة التي خلّفت أدبيّات تفصح عن توجّهاتها وأفكارها، وفي مقدّمتها كتاب عازوري الموسوم: "يقظة الأمّة العربيّة في آسيا التركيّة"، وقد أصدره باللغة الفرنسيّة سنة ١٩٠٥، لكن ترجمته إلى اللغة العربيّة تأخّرت إلى سنة ١٩٧٨، وهو ما يفسّر محدوديّة انتشاره في صفوف المثقّفين والقوميين العرب إذ لم يطلع عليه حتّى شباب "جمعيّة النهضة العربيّة" حسب شهادة مصطفى الشهابي، وذلك على الرغم من الاهتمام الواسع الذي حظي به في الصحافة الفرنسيّة، ثمّ لدى الباحثين الغربيين.(٦١) كما ألّف صديقه أوجين يونغ كتابين هما: "القوى أمام الثورة العربيّة" (١٩٠٦) و"الثورة العربيّة: من ١٩٠٦ إلى ثورة ١٩١٦" (١٩٢٤). وتعاون عازوري ويونغ على نشر مجلة "الاستقلال العربي"، التي صدرت في باريس باللغة الفرنسيّة من أفريل ١٩٠٧ إلى سبتمبر ١٩٠٨، وكانت تلقى رواجا كبيرا في الخارج.(٦٢) وأصدرت هذه الجمعيّة كذلك جملة من البيانات مثل منشور ديسمبر ١٩٠٤ الذي دعا العرب إلى الثورة ضدّ الأتراك ومقاطعة الخدمة العسكريّة في الأراضي العربيّة، أو خصوصًا منشور جانفي ١٩٠٥ الموجّه إلى القوى العظمى لتعريفها بأهداف الجمعيّة وطمأنتها على مصالحها بالجهة.(٦٣)

وقد نشر عازوري أهمّ ما جاء في بيان ١٩٠٥ في مقدّمة كتابه، وهو يعطينا توضيحا وافيا لبرنامج الرابطة وأهدافها، وقد ورد في بالخصوص قوله: "فالعرب الذين لم يضطهدهم الأتراك إلّا لاستمرار تجزئتهم بمسائل تافهة مذهبيّة ودينيّة، قد وعوا تجانسيّتهم القوميّة التاريخيّة والعنصريّة، وهم يريدون الانفصال عن الشجرة العثمانيّة المسوّسة ليكوّنوا دولة مستقلّة بذاتهم".(٦٤) وتتكشّف منذ البداية الأهداف الاستقلاليّة لهذه الجمعيّة، فهي ترنو إلى تحقيق استقلال العرب عن الإمبراطورية العثمانيّة، وتهدف إلى تركيز دولة عربيّة أو وطن عربي متجاوزة بذلك الأفكار التي كانت رائجة في ذلك الوقت مثل فكرة الوطن العثماني المنتشرة لدى العرب المسلمين، وفكرة الوطن السوري المحبّذة لدى العرب المسيحيين، ولم تسبقها في طرح مسألة الاستقلال والانفصال عن العثمانيين سوى جمعيّة حفظ حقوق الملّة العربيّة كما سنبيّن لاحقًا.

طرح هذا البيان أيضًا في اختزال شديد جملة من القضايا الشائكة مثل حدود الدولة العربيّة المنشودة، ونظام حكمها وعلاقتها بالخارج، وخصوصًا مسألة الخلافة، التي لم تتناولها أيّة جمعيّة قوميّة قبل ذلك، فجاء فيه: "سوف تمتدّ هذه الإمبراطورية العربيّة الجديدة ضمن حدودها الطبيعيّة، من وادي دجلة والفرات حتّى برزخ السويس، ومن البحر الأبيض المتوسّط حتّى بحر عُمان، وسوف يحكمها سلطان عربي حكما ملكيّا دستوريّا متحرّرا. وستؤلّف ولاية الحجاز إمبراطورية مستقلّة يكون حاكمها في الوقت نفسه الخليفة الديني لجميع المسلمين. هكذا يكون قد وجد حلّ لصعوبة كبيرة بفصل السلطة المدنيّة عن السلطة الدينيّة في الإسلام من أجل خير

الجميع الأكبر. وسنحترم كلّ مصالح الأجانب الحالية المباشرة في بلادنا وجميع الامتيازات التي منحها إيّاهم الأتراك".[٦٥]

توسّع نجيب عازوري في كتابه في شرح برنامج رابطة الوطن العربي، فبيّن، وكلامه موجّه للدول الاستعمارية بالأساس، أنّ الدولة العربيّة المنشودة لن تشمل مصر "لأنّ المصريين لا ينتمون إلى العرق العربي"، وأنّها ستحترم أنظمة الحكم الذاتي في لبنان وإمارات اليمن ونجد والعراق، وستكون ذات نظام دستوري يراعي الحريّات والأقليّات. وتتبنّى هذه السلطنة الموعودة المبادئ العلمانيّة القاضية بفصل السلطة الدينيّة عن السلطة السياسيّة، لذلك رأت الرابطة أن تمنح السلطة السياسيّة إلى أمير من العائلة الخديويّة المصريّة، أمّا الخلافة فتمنح، بعد استعادتها من الأتراك، إلى شريف مكّة، على أن تكون له سلطة سياسيّة لا تتعدّى ولاية الحجاز ومنطقة المدينة المنوّرة حتّى العقبة، وسلطة روحيّة تشمل المسلمين كافّة. وبرّر هذا الاختيار بكون الجمع بين السلطتين السياسيّة والدينيّة هو سبب انهيار الإمبراطورية العثمانيّة، وشنّ هجوما غير مسبوق على السلطان عبد الحميد الثاني، وعلى نظامه الاستبدادي.[٦٦]

كان نجيب عازوري لبنانيّا مارونيّا، ولكنّه تجاوز الأفق الطائفي الضيّق، وتبنّى الفكرة القوميّة العربيّة، وكان يحلم مثل باقي المسيحيين العرب بمجتمع جديد ينتمي إليه خارج الإطار العثماني الإسلامي كالوطن اللبناني أو السوري، وكانت له جرأة إيجاد التعبيرة السياسيّة المناسبة لهذا الحلم مع محاولة تجنّب السقوط تحت تسلّط إسلامي من نوع آخر أو التصادم مع الأغلبيّة، وتتمثّل هذه التعبيرة في وطن عربي منفصل عن أساسه الديني، يتاح فيه التعايش بين المسلمين والمسيحيين في إطار نظام علماني وليبرالي، ويحظى بحماية أوروبيّة.[٦٧] وقد دفعه اقتناعه بضرورة كسب الحماية الأجنبيّة لمشروع الدولة العربيّة إلى تخصيص الحيّز الأكبر من كتابه للحديث عن مصالح الدول الكبرى في المنطقة، وتقديم مظاهر الولاء للقوى الاستعماريّة منها، حيث استثنى مصر وشمال أفريقيا من حساباته حتّى يحظى بتأييد إنكلترا وفرنسا لمشروعه سياسيّا وماديّا، وهذا ما جعل بعض الباحثين يشكّكون في أمره، مثل سيلفيا حاييم التي اعتبرته شخصا مشبوها أو غامضا وعميلا فرنسيّا.[٦٨] ويهمّنا أكثر أن نتعرّف على آراء بعض معاصريه على غرار رشيد رضا الذي وصله بيان الرابطة سنة ١٩٠٥ فعلّق عليه قائلاً: "وفي رأينا أنّ هذه النشرة لا تعدو أمرين أحدهما إثارة الهواجس في يلدز (قصر السلطان عبد الحميد) تمهيدا لأمر تريده بعض الدول وهو المرجوح، وثانيهما أنّه وسيلة من رجل أو نفر من المحتالين بأمثال هذه الوساوس لنيل الرتب والرواتب المالية من السلطان وهو الأرجح".[٦٩]

وكان عازوري عارفًا بالتوازنات والعلاقات الدوليّة، ويبدي أحيانًا آراء استشرافيّة لعلّ أبرزها تنبؤّه منذ سنة ١٩٠٥ بالتصادم المحتوم بين القوميّتين العربيّة واليهوديّة المتشابهتين من حيث الطبيعة والمتعارضتين من حيث الأهداف.[٧٠] وجد عازوري، المتشبّع بالثقافة الفرنسيّة التنويريّة، في العلمانيّة حلّا مناسبا لطائفته ولقوميّته، ويبدو أنّه تأثّر في ذلك بأفكار عبد الرحمان الكواكبي، الذي يعتبر أحد أبرز المفكّرين المسلمين في ذلك العصر، وخصوصًا بعد خلافه مع السلطان عبد الحميد ومستشاره أبو الهدى الصيّادي السوري الحلبي، الذي أقصى عائلة الكواكبي من رئاسة نقابة الأشراف في حلب. ونادى منذ مطلع القرن العشرين بإرجاع الخلافة إلى العرب والقرشيين تحديدًا، وجعلها مقيّدة بالشورى وبالانتخاب، مع ضرورة الفصل بين سلطتها السياسيّة والإداريّة المحدودة بالحجاز، وبين سلطتها الروحيّة. واعتبر العرب أمّة تجمعها رابطة اللغة، ولهذه الأمّة مشروع مزدوج: وحدة قوميّة في إطار الوطن، ونهضة إحيائيّة تعيد لها دورها في الإسلام.[٧١] وتلتقي بذلك أفكار عازوري مع أفكار الكواكبي رغم اختلافهما البيّن في الانتماء الاجتماعي والمرجعيّة الفكريّة، ويلتقيان أيضًا في علاقتهما الوثيقة بالأسرة الخديويّة المصريّة، وربّما يكمن هنا السرّ الحقيقي الكفيل بتفسير اختيار نجيب عازوري لسلطان مصري على رأس الإمبراطورية العربيّة التي لا تشمل مبدئيّا مصر.

يذكر ويلفرد بلانط أنّ العائلة الحاكمة المصريّة كانت تسعى إلى تنصيب شريف مكة خليفة للمسلمين على أن يكون تحت حماية سلطان مصري، وأنّ الخديوي إسماعيل الذي أصبح معاديا للسلطان عبد الحميد بعد أن أقصاه من العرش المصري سنة ١٨٧٩، كان يقوم بالدعاية للخلافة العربيّة بواسطة إرسال بعض المبعوثين إلى الشرق، أو كذلك بواسطة تمويل بعض الصحفيين مثل لويس صابونجي الذي أسّس مجلة عربيّة في لندن سنة ١٨٧٧ اسمها "النحلة"، وإبراهيم المويلحي الذي أصدر في إيطاليا سنة ١٨٧٩ جريدة "الخلافة".[٧٢] ويبدو أنّ السلطان عبد الحميد قد نجح في استمالة القسّ صابونجي، حيث عيّنه مترجمه الخاص سنة ١٨٩٠ وكلّفه بتعليم أبنائه، لذلك خصّه بعدّة قصائد مدحيّة في ديوانه الذي نشره بمصر سنة ١٩٠١ وأهداه إليه مصبغا عليه كلّ الألقاب الشرفيّة للخلافة، ويثبت "ديوان شعر النحلة المنظوم خلال الرحلة" أنّ صابونجي كان يتودّد أيضًا إلى

الخديوي عبّاس حلمي،[٧٣] إذ قام الخديوي عباس حلمي (الثاني) بعد وفاة إسماعيل (١٨٩٥) بنفس الدعاية بواسطة مبعوثين أرسلهم إلى فلسطين وغيرها، ونعتقد أنّ نجيب عازوري تمّ توظيفه أيضًا من قبل خديوي مصر للقيام بهذه المهمّة الدعائيّة، ونجد في كتابه إشارة إلى جولة طويلة قام بها سنة ١٩٠٤ في فلسطين وسوريا، وعندما استرابت السلطات التركيّة في نشاطه فرّ إلى مصر ثمّ إلى باريس. ويذكر بعض القوميين أنّ جلّ الصحفيين العرب الذين طرحوا مسألة الخلافة، مثل صابونجي والمويلحي، لم يكونوا قوميين مخلصين بل مجرّد مأجورين وانتهازيين، واعتبر أنّ عازوري شخصا مشبوها يتحرّك بدافع الانتقام والتهويل بعد أن تمّ عزله من الوظيفة التي كان يشغلها بالقدس.[٧٤]

ونشير في الأخير إلى أنّ نجيب عازوري لم يلتزم ببرنامج الرابطة حتّى النهاية، فعلى إثر نجاح ثورة الشبّان الأتراك سنة ١٩٠٨ كتب مقالا في مجلّة "الاستقلال العربي" وضّح فيه التوجّهات الجديدة بعد التفاهم مع أحمد رضا والأمير صباح الدين، حيث أصبح يقبل بفكرة اللامركزيّة الإداريّة وتحقيق الاستقلال الداخلي للعرب في الإطار العثماني وبالوسائل الدستوريّة.[٧٥] وعاد عازوري إلى فلسطين للترشّح لانتخابات مجلس المبعوثان، لكنّ السلطة التركيّة منعته من ذلك لأنّه كان محكوما بالإعدام، فالتجأ إلى مصر واستقرّ بها إلى حدّ وفاته سنة ١٩١٦، وأسّس هناك جريدة يوميّة ومحفلا ماسونيّا، وكان بعض أمراء العائلة الخديويّة ينتمون بدورهم إلى الماسونيّة. وتلاشت جمعيّته في ظلّ ظهور جمعيّات قوميّة أكثر تنظيما وإشعاعا مثل "العهد" و"حزب اللامركزيّة الإداريّة العثماني".

٣/٢-"جمعيّة الشورى العثمانيّة" بالقاهرة (١٩٠٧)

ذكر زين نور الدين زين أنّ جمعيّة الشورى العثمانيّة تأسّست بالقاهرة بعد سنة ١٨٩٧ بقليل، وتبعه في ذلك توفيق علي برو وعدّة باحثين آخرين،[٧٦] في حين يذكر رشيد رضا، الذي جاء من دمشق إلى القاهرة في أواخر سنة ١٨٩٧ وقام ببعث مجلة المنار سنة ١٨٩٨، أنّ فكرة بعث هذه الجمعيّة طرحت في أذهان بعض العثمانيين المقيمين بالقاهرة إثر وفاة الإمام محمد عبده (١٩٠٥)، ولكن بعد جلسات عديدة تداولوا فيها أخبار الاستبداد.[٧٧] ونشرت جريدة المنار في فيفري ١٩٠٧ اللائحة الأساسيّة لجمعيّة الشورى العثمانيّة، وعليه فإنّ هذه الجمعيّة ظهرت في أواخر سنة ١٩٠٦، أو في بداية سنة ١٩٠٧ على الأرجح.

كانت الجمعيّة مفتوحة لكلّ العثمانيين، وتألّفت من "المسلمين عربهم وتركهم وألبانهم وأكرادهم، ومن النصارى عربهم ورومهم وأرمنهم، ودعي إليها بعض اليهود ولكن لم يكن في مجلس إدارتها أحد منهم".[٧٨] ضمّت الهيئة التأسيسيّة: رشيد رضا (رئيس مجلس إدارة) ورفيق العظم (أمين صندوق الجمعيّة) وحقّي العظم (سكرتير عربي) وعبد الله جودت (سكرتير تركي) والضابط صائب بك مندوب جمعيّة الاتّحاد والترقّي بمصر.[٧٩] وكان رفيق العظم، المنحدر من عائلة عريقة بطرابلس الشام، المسيّر الحقيقي لهذه الجمعيّة التي انضمّ إليها في أواخر سنة ١٩٠٧ محبّ الدين الخطيب، وهو من أعيان دمشق وأحد مؤسّسي "جمعيّة النهضة"، فكان العضو رقم ١٤/١ أي أنّه العضو الأوّل في الشعبة رقم ١٤ (فرع اليمن)، وهو دليل على توسّع الجمعيّة وتعدّد فروعها خلال السنة الأولى من تأسيسها.

وتعطينا رسالة رفيق العظم إلى محبّ الدين الخطيب (جوان ١٩٠٨) فكرة أوضح عن مؤسّسي جمعيّة الشورى وأبرز أعضائها، حيث يقول: "سألتموني عن بعض أسماء المؤسّسين وإذا كنّا جميعا تحت سماء الحريّة فلا أضنّ به عليكم وهو الداعي (رفيق العظم) وابن عمّي حقّي بك والسيّد رشيد رضا والسيّد عبد الحميد الزهراوي وأحمد بك صائب صاحب جريدة سنجق والدكتور عبد الله بك جودت صاحب مجلّة اجتهاد والدكتور شبلي شميّل الفيلسوف المشهور وصحافي رومي وشخصان أرمنيّان.[٨٠] ونلاحظ أنّ معظم هؤلاء ينتمون اجتماعيّا إلى فئة الأعيان وينحدرون من عائلات سوريّة وتركيّة عريقة، ويتعاطون مهنا حرّة تدلّ على تكوين علمي متين (كتّاب وصحافيّون وأطبّاء)، واستقطبت بعد تأسيسها عدّة موظفين وعسكريين، لذلك أكّد رفيق العظم في رسالته ضرورة انتداب بعض الفدائيين الذين ينتمون عادة إلى "الطبقة النازلة" (الدنيا) لأنّهم أكثر إخلاصًا وصدقًا في نظره.

تهدف هذه الجمعيّة إلى توحيد الشعوب العثمانيّة من أجل إسقاط حكومة الاستبداد، وتركيز حكومة الشورى والعدل، وهي معادية في توجّهها للجمعيّات المطالبة بالانفصال عن الإمبراطورية العثمانيّة، أو تلك المطالبة بخلافة عربيّة، وتعبّر بالمقابل عن وجهة نظر أغلبيّة المسلمين المتمسّكين بالإطار العثماني، والمدافعين عن وحدة الدولة واستمرارها وتحديثها، وتتبنّى بذلك موقف الإمام محمد عبده الذي يرى أنّ فصل العرب عن الترك يضيع الفريقين ويضرّ بالإسلام.[٨١]

وينصّ قانونها الأساسي المتكوّن من ١٠ مواد، على هدف الجمعيّة كما تحدّده المادة الأولى: "القصد من تأسيس هذه الجمعيّة هو جعل الحكومة العثمانيّة دستوريّة شوريّة بالفعل".[٨٢] ويبدو أنّ هذا القانون الأساسي تمّ توسيعه بعد

ذلك، إذا أرسلت نسخة منه إلى محبّ الدين الخطيب ممثّل الجمعيّة باليمن، وتظهر هذه النسخة أنّه أصبح يتكوّن من ١٦ مادة مبوّبة في خمسة فصول، وتمّ تحديد هدف الجمعيّة على النحو الآتي: "التوسّل لإقامة قاعدة الشورى على وجهها القطعي في دولة آل عثمان، ونشر العدل والترقّي في المملكة على ما يقتضيه العصر."[٨٣] ويذكر رفيق العظم في رسالته إلى محبّ الدين الخطيب بندا آخر لم يقع التنصيص عليه في القانون الأساسي، ويتمثّل في "عقاب كلّ من يخون الجمعيّة بالموت"، ويتمّ التنفيذ بواسطة عضو تختاره الشعبة المعنيّة أو عن طريق الفدائيين التابعين لها،[٨٤] ويثبت ذلك أنّ هذه الجمعيّة السياسيّة كانت شبه سريّة ومنظّمة بطريقة شبه عسكريّة، فالعضو الجديد لا يعرف إلّا العضو الذي يسبقه والعضو الذي يليه مباشرة، ولعلّ ذلك يرجع إلى تمرّس رفيق العظم بالجمعيّات، حيث انتمى إلى فرع جمعيّة الاتّحاد والترقّي التركيّة قبل مجيئه إلى القاهرة، ويظهر تأثير ذلك أيضًا في القانون الأساسي لجمعيّة الشورى الذي أضيفت إليه عبارة "العدل والترقّي". ويذكر رشيد رضا أنّ أحمد رضا جاء من باريس ليطلب منه دمج جمعيّة الشورى في جمعيّة الاتّحاد والترقّي التركيّة، غير أنّه رفض ذلك لأنّ جمعيّته عثمانيّة بينما جمعيّة الاتّحاديين تركيّة في واقع الأمر، مع التقائهما في مقاومة الاستبداد الحميدي والسعي لتحقيق الشورى النيابيّة.[٨٥]

تميّزت جمعيّة الشورى، إضافة إلى حسن تنظيمها، بنشاطها الكبير في بداية عهدها، حيث قامت بتكوين عدّة فروع في المدن العربيّة، وكانت تمدّها بالمنشورات المطبوعة باللغتين العربيّة والتركيّة، وتروّج منشوراتها أيضًا في بلاد الأناضول. واستعاضت عن ذلك بعد إصدار جريدة خاصّة بها تحمل اسمها "شوراي عثماني" (الشورى العثمانيّة) التي كانت تصدر بالقاهرة بأشهر اللغات التي يعرفها القرّاء العثمانيين وهي التركيّة والعربيّة في الأكثر والفرنسيّة والأرمنيّة والروميّة أحيانا أي أنّ كلّ عدد منها يكتب بعدّة لغات.[٨٦] وبما أنّ رشيد رضا كان متفرّغا لمجلّة المنار، فإنّ رفيق العظم تكفّل بتسيير الجمعيّة وجريدتها، حيث يقول لمحبّ الدين الخطيب: "لكنّ أشغال الجمعيّة وأسرارها وجريدتها وكلّ ما يتعلّق بها قائم في الحقيقة على كاهلي وكاهل حقّي بك، فأنا أحرّر القسم العربي من الجريدة وهو يحرّر القسم التركي.[٨٧]

يذكر رشيد رضا أنّ السلطان عبد الحميد الثاني بلغه نبأ تأسيس هذه "الجمعيّة الإفساديّة" كما سمّاها، فأقضّ مضجعه و"بقي ثلاث ليال لا تذوق عيناه النوم إلّا غرارًا، ولم يقرّ له قرار حتّى عرف مؤسّسيها من بعض جواسيسه بمصر".[٨٨] وتواصل نشاط الجمعيّة مع ذلك إلى حدّ ثورة الاتّحاديين وعودة المشروطيّة (جويلية ١٩٠٨)، فقرّر رفيق العظم العودة إلى جمعيّته الأصليّة أي جمعيّة الاتّحاد والترقّي، ثمّ انسحب منها عندما اتّضحت معالم سياستها القوميّة التركيّة، فأسّس سنة ١٩١٠ جمعيّة جديدة صحبة رشيد رضا هي "جمعيّة الجامعة العربيّة"، وهي عبارة عن اتّحاد حلفي يجمع بين أمراء الجزيرة العربيّة، ثمّ قاما صحبة رموز جمعيّة الشورى بتأسيس حزب اللامركزيّة الإداريّة العثماني بمصر (١٩١٢) الذي كان متأثّرا بأفكار الأمير صباح الدين.[٨٩] وبذلك فإنّ رفيق العظم، الذي كان يدافع عن الرابطة العثمانيّة، ويرى أنّ العصبيّات القوميّة من شأنها أن تضعف هذه الرابطة وتمهّد الطريق للتدخّل الأجنبي، ويرفض الجامعة الإسلاميّة، ولا يرى لها أصلا في التاريخ، تحوّل من العثمانيّة إلى القوميّة العربيّة الاستقلاليّة.[٩٠] وهذا التحوّل بالذات، وكذلك العلاقة الوطيدة بين جمعيّة الشورى وغيرها من الجمعيّات القوميّات الأخرى، هو الذي جعلنا نصنّفها ضمن الجمعيّات القوميّة رغم طابعها العثماني وإيمانها بالوطن العثماني.

ثالثًا: الجمعيّات الناشطة بالداخل زمن الاستبداد الحميدي

٣/١-"جمعيّة حفظ حقوق الملّة العربيّة" (١٨٨١)

يلفّ الغموض تاريخ هذه الجمعيّة، حيث لم يرد ذكرها عند كبار مؤرّخي اليقظة العربيّة مثل أنطونيوس، في حين اكتفى زين نور الدين زين بذكرها في أحد هوامش كتابه معتمدا في ذلك على تقرير القنصل الإنكليزي ببغداد، الذي تلقّى منشورا مؤرّخا في ١٩ مارس ١٨٨١ عنوانه "بيان من الأمّة العربيّة" صادر عن الأمّة العربيّة "جمعيّة حفظ حقوق الملّة العربيّة".[٩١] ويدلّ ذلك أنّ ترويج المنشورات تواصل بعيد إعفاء مدحت باشا من ولاية سوريا نتيجة تراخيه في كشف حقيقة المنشورات الصادرة سنة ١٨٨٠، والجديد في الأمر أنّ المنشور الجديد كان يحمل توقيعا باسم جمعيّة مجهولة، نصّبت نفسها للحديث باسم الأمّة العربيّة لا الأمة السوريّة أو الوطن السوري كما كان الأمر في منشور ديسمبر ١٨٨٠. وقد توقّف بعض الباحثين لتحليل دلالات اسم هذه الجمعيّة، فبيّن أنّها أوّل جمعيّة تحمل اسمًا قوميّا، لا محليّا أو عامّا مجرّدًا، وأنّها استخدمت مصطلح "الملّة العربيّة" كمرادف للأمّة العربيّة، وبديلاً عن استخدام لفظة العرب مطلقًا، الأمر الذي يدلّ على نموّ الإحساس بوجود جماعة أو هيئة عربيّة متميّزة لها من الحقوق ما يستوجب حفظه.[٩٢] ووقع

غيره من الباحثين في بعض الخلط بخصوص موطن هذه الجمعيّة وتركيبتها، ونسبوا إليها مناشير لم تصدرها، وفروعا لم تؤسّسها، وهو ما سنحاول توضيحه وتصحيحه.

يعتبر أنيس المقدسي الخوري أوّل من تحدّث عن هذه الجمعيّة في مجلة "المقتطف"، التي أسّسها شبّان جمعيّة بيروت ونقلوها سنة ١٨٨٦ إلى مصر، فذكر أنّها تمثّل مظهرا لليقظة القوميّة المطالبة بحقوق العرب في السلطنة العثمانيّة، والحاضّة على انهاضهم، وأنّها نشرت نداء إلى العرب من مسلمين ومسيحيين تحت عنوان "بيانامة الأمّة العربيّة" تدعوهم فيه إلى الاتّحاد والمطالبة بالحقوق القوميّة، واكتفى بذكر مقتطفات من هذا البيان.[٩٣] اعتمد الخوري في نقل بيان هذه الجمعيّة على جريدة "المشير" (٢٩ ماي ١٨٩٥) لصاحبها البيروتي سليم سركيس، وقد تأسّست هذه الجريدة سنة ١٨٩٤ بالقاهرة التي أصبحت ملجأ الهاربين من الاستبداد الحميدي، وهو ما يفسّر تأخّرها في نشر هذا البيان. وانتقل الخوري بعد ذلك إلى التعريف بجمعيّة تأسّست في باريس وتحدثت عنها "المشير" سنة ١٨٩٦ ممّا جعل البعض يخلط بين الجمعيّتين ومكان ظهورهما.

تعرّض محمد عزّت دروزة بدوره إلى جمعيّة حفظ حقوق الملّة العربيّة، فذكر أنّها تكوّنت من المثقفين العرب في بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا، وكانت تنادي بالوحدة الإسلاميّة المسيحيّة ضمن الإطار القومي العربي، وتوزّع المنشورات المخطوطة باليد، التي تحثّ العرب على الاتحاد واليقظة ومقاومة الاستبداد الحميدي، ونقل بعض ما ورد في منشورها الأصلي، ولكنّه نسب إليها بصفة ضبابيّة المنشور الثالث الذي صدر في ديسمبر ١٨٨٠ عن جمعيّة بيروت السريّة بالتعاون مع جمعيّة المقاصد الخيريّة، وهو ما أضفى المزيد من الغموض حول هذه الجمعيّة.[٩٤] ومن دون أن ننفي تمامًا إمكانيّة وجود جمعيّة حفظ حقوق الملّة العربيّة قبل سنة ١٨٨١، فإنّنا سنعتمد للتعريف بها بالأساس على منشور ١٩ مارس ١٨٨١، وهو المنشور الوحيد الذي أصدرته على ما يبدو.

وقد نشر هذا المنشور كاملاً باللغة العربيّة من قبل المؤرّخ اليهودي "جاكوب لاندو" في إحدى المجلّات التركيّة، ومنه نقتطف هذا المقطع الطويل:

"يا أيّها المسلمون، قد مضى علينا قرون والأمّة العربيّة الإسلاميّة والمسيحيّة تكابد من الترك كلّ نوع من المكائد والمظالم حتّى أضحت جميع بلادنا بورا وخرابا وحتّى وصلنا اليوم إلى هذه الحالة التي يرثى لها ومع هذا فإنّ الترك يطلبون منّا الآن نفقات أخرى للحرب (...)

فيا أيّها العرب، تذكّروا بأنّ حرب الروسية الأخيرة وحرب الصرب والجبل الأسود كانت بدمائكم وبأموالكم ومع أنّ الترك قدّموا أولادكم في القتال أخّروهم وقت المكافأة لا بل كانوا يدّعون بأنّهم جبناء ونسبوهم إلى الخيانة وقالوا إنّ الفلاحين أعني العرب كانوا يقطعون أصابعهم قصدا للفرار من الحرب ولم نر من أبطالنا من نال رتبة لواء ولا فريق حتّى ولا أمير آلاي بل أعطيت هذه الرتب إلى الترك الذين خانوا الوطن (...)

فيا أيّها المسلمون، تذكّروا صفات آبائكم وأجدادكم ونخوتهم وشرفهم وحماستهم وغيرتهم وانظروا إلى حالتكم التعيسة ثمّ انظروا إلى رفاهيّة الذين استقلوا من ربقة دولة الترك وخرجوا من قبضتهم المستبدّة فانظروا كيف صاروا في غبطة ورفاهيّة ومتساوين في المجازاة والمكافأة وانظروا إلى تعدّي الترك عليكم لكونكم بقيتم من الصادقين فإلى متى وأنتم نائمون وإلى متى وأنتم غافلون (...)

فيا أيّها المسلمون، أنظروا كيف باعت الترك بلادنا للروسيين وللصربيين وللجبليين وللبلغاريين انظروا كيف باعوا ناموسهم إلى الروس (...) فإلى متى يا اخواننا أنتم ساكتون فانظروا غبطة جيرانكم اللبنانيين وانظروا إلى ثروة المصريين ورفاهيّة حالهم فهل تنالون شيئا من هذه الغبطة والرفاهيّة إن لم تسفكوا دماءكم لنوال استقلاليّتكم (...) فأين أنتم وأين هم فمن فيكم اليوم أمير ومن منكم اليوم وزير ومن فيكم اليوم مدير بل كلّ واحد منكم فقير وكبيركم مثل صغيركم حقير والمال والآمال في أيادي الترك.

فيا أيّها المسلمون، أنتم قوم عرب أبطال هيئوا على الاستقلال فإنّ أجدادكم أحرار اشتهروا في الحروب والقتال وأنتم عن حقوقكم غافلون وعن وظيفتكم نائمون وما دمتم في هذه الغفلة تصيرون من النادمين.

يا أيّها المسيحيّون السوريّون، اتّحدوا مع المسلمين واستعدّوا لنوال حريّتكم من المتعدين فإنّ الترك يخشون بأسكم ولا ينتهكون حرمتكم وحرمة نسائكم خوفا من القناصل الذين في بلادكم فاتّحدوا بقلب مع إخوانكم المسلمين فإنّ مرجع مصالحكم إلى واحد.

فيا أيّها المسلمون والمسيحيّون، إنّ نجاحنا وخلاصنا من أيدي الترك متوقّف على كلمة واحدة ويد واحدة ومقصد واحد يصدر منكم لتخليص الأمّة العربيّة من ربقة الترك فهذه حرب أخيرة اغتنموا فرصتها وإلا تمسون من الخاسرين ثمّ إياكم أن

تمدّوا الترك برجل من رجالكم أو بدرهم من مالكم فإنّ الترك عاملون على بيع بلادكم فإنّ مبادئ دنياهم ودينهم الدينار وآخرتهم العقاب والنار والعار عندهم افتخار".[٩٥]

يمكن الوصول من خلال دراسة هذا المنشور إلى عدّة استنتاجات مهمّة:

- من حيث الشكل، يمثّل هذا المنشور بيانا سياسيّا بالمعنى الحديث للكلمة، حيث كتب بأسلوب متين لا يميل إلى الدعاية العاطفيّة بل إلى التحليل السياسي المركّز الذي يوحي بوجود ثقافة سياسيّة واعية بموازين القوى العالميّة السائدة. ولم يكتب بخطّ اليد مثلما ذكر البعض، بل إنّه طبع بطريقة عصريّة راقية، وهذا ما جعل القنصل الإنكليزي الذي حصل على المنشور في بغداد يرجّح أنّ مصدره إنكلترا اعتمادًا على نوعيّة الورق والطباعة.[٩٦]

- من حيث طريقة الترويج، لم يتم تعليق المنشور على جدران بيروت أو دمشق مثلما كان الأمر سابقا، وإنّما تمّ ترويجه في عدّة مدن عربيّة مثل بيروت ودمشق والقاهرة والخرطوم ومكة، بل إنّه وصل إلى الجزائر الخاضعة للاحتلال الفرنسي.[٩٧] ويعكس ذلك رؤية جديدة إلى الوطن العربي أو الأمّة العربيّة، التي أصبحت تتجاوز حدود الوطن السوري الضيّق. وممّا يثير الاستغراب انتشار هذه المنشور في عدّة مدن عربيّة من دون أن تتفطّن إليه الرقابة العثمانيّة أو أن يثير انتباه جواسيس السلطان عبد الحميد، وهذا لا يمكن أن يتمّ إلّا عن طريق البريد الأجنبي ومساعدة بعض الدول الأوروبيّة.

- أمّا بالنسبة إلى مقرّ جمعيّة حفظ حقوق الملّة العربيّة، فتذكر بعض المراجع أنّها تأسّست في بيروت أو في باريس، في حين تؤكّد الدراسات الأجنبيّة الحديثة أنّ هذه الجمعيّة ظهرت في دمشق،[٩٨] وهو ما يوحي به المنشور نفسه بصفة ضمنيّة، حيث وردت فيه عبارة "جيراننا اللبنانيين".

- بخصوص تركيبة الجمعيّة، يبدو أنّها جمعيّة قوميّة لا طائفيّة، وعربيّة لا سوريّة، وتبدو بصمة المسلمين واضحة في هذا المنشور، فهو يعبّر عن وجهة نظر رجال الدين التقليديين القلقين بشأن مصير البلاد العربيّة بعد تفكّك الإمبراطورية. وكان رجال الدين المحافظين وحدهم يعارضون النظام المركزي لعدم قدرتهم على التأقلم مع النظم الاجتماعيّة والسياسيّة الجديدة، وكذلك مع سياسة الانفتاح على الغرب، أمّا الأعيان فكانوا مدمجين في النظام العثماني بفضل السياسة الإسلاميّة للسلطان عبد الحميد، وكانوا متمسّكين في الغالب بالرابطة العثمانيّة، في حين كان المسيحيّون النشيطين أقليّة، وقد اضطرّ المطالبون بالإصلاح واللامركزيّة إلى الهروب نحو القاهرة وأوروبا.[٩٩]

- من حيث أهداف الجمعيّة، تعمل هذه الجمعيّة من أجل وحدة العرب المسلمين والمسيحيين أمام هدف واحد هو التخلّص من الهيمنة التركيّة والاستقلال على غرار باقي القوميّات والملل الأخرى. ولا يتضمّن هذا المنشور أيّة إشارة إلى استبداد السلطان عبد الحميد، أو إلى مؤسّسة الخلافة، ولا نجد فيه حتّى ذكر عبارة العثمانيين، بل يكرّر استعمال كلمة الترك بوصفهم الأمّة المستغلة للعرب والمهيمنة عليهم عسكريّا وجبائيّا. ولا يطالب بالإصلاح أو بالمساواة بين الجنسين التركي، وإنّما بمقاطعة الأتراك والثورة عليهم لتحقيق الاستقلال، ولكن من دون توضيح مضمون هذا الاستقلال وحدوده.

- بالنسبة لحقيقة هذه الجمعيّة ومصيرها، لا تذكر هذه الجمعيّة إلّا بصفة مقترنة بمنشور مارس ١٨٨١، فهل تلاشت بنفس السرعة التي ظهرت بها؟ ألا يصحّ عليها قول سليمان البستاني: "ولست هنا بمتكلّم عن الجمعيّات التي كانت على وشك القيام للتأليف بين المسيحيين والمسلمين. فإنّه قضي عليها وهي في مهدها لأنّها تأخّرت في النشؤ فتقدّمت في الاضمحلال".[١٠٠] وربّما كانت هذه الجمعيّة امتدادا لجمعيّة المقاصد الخيريّة، فتلاشت عند حلّ جمعيتي مقاصد بيروت وصيدا سنة ١٨٨٢ بعد تحميلها مسؤوليّة منشور ديسمبر ١٨٨٠، ولعلّها كانت مناورة أخرى من مدحت باشا ليبيّن أنّ إبعاده من ولاية سوريا لم يضع حدّا للمناشير الثوريّة، أو ربّما، وهو الأرجح، أن تكون تلك الجمعيّة السريّة التي كشفها السفير البريطاني بإستانبول عند لقائه بمدحت باشا، حيث قال: ""سألت رفعته هل علم بمؤامرة إسلاميّة أو عربيّة مركزها مكة أو المدينة، وغايتها الاستيلاء على عرش السلطة العثمانيّة وتأسيس إمبراطورية عربيّة...فأجاب رفعته أنّ ما بلغه هو في الأيّام الأخيرة يثبت الأخبار التي وصلتني، فقد علم برجل من أهل الحجاز اسمه الشيخ علي، كان حينئذ جادّا في سورية لاكتساب أعضاء لجمعيّة سريّة، وأنّ دعوته قد صادفت نجاحا حتّى بين الجنود فتأسّست لها لجان سريّة في المدن الرئيسيّة".[١٠١]

٢/٣-"جمعيّة الآداب العلميّة العربيّة" بالقدس (١٨٩٨)

يعتبر عبد اللطيف الطيباوي الباحث الوحيد الذي تحدّث عن هذه الجمعيّة الثقافيّة التي نشطت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، من دون أن تكون لها اهتمامات سياسيّة معلنة. تأسّست هذه الجمعيّة، التي أشار إليها خليل السكاكيني في

مذكّراته باسم جمعيّة الآداب الزاهرة، سنة ١٨٩٨، واستمرّت للوجود حوالي عشر سنوات بعد نشأتها. وكانت جمعيّة شبه طائفيّة لأنّها ضمّت بالأساس نخبة من المثقّفين المسيحيين، وهم: داود الصيداوي (رئيس الجمعيّة) وخليل السكاكيني (كاتب الجمعيّة) وعيسى العيسى وفرج فرج الله وأفتيم مشبك وشبلي الجمل ونخلة ترزي، إضافة إلى مسلم واحد هو جميل الخالدي.[١٠٢]

كان هدف الجمعيّة إعلاء شأن اللغة العربيّة عن طريق الاهتمام بالخطابة، والاعتناء بشؤون التربية والتعليم، وكان للأستاذ نخلة جرجس زريق دور مهمّ في تأصيل هذا التوجّه. ولا يعني ذلك أنّ هذه الجمعيّة لم تكن لها اهتمامات سياسيّة زمن الاستبداد الحميدي، حيث كتب أحد أبرز أعضائها، وهو خليل السكاكيني، بعد عودة العمل بالدستور سنة ١٩٠٨، وكان يقيم آنذاك بأمريكا: " الآن إذا رجعت إلى بلادي يكون رجوعي في محلّه...الآن أستطيع أن أخدم بلادي، الآن أستطيع أن أنشئ مدرسة، وجريدة، وجمعيّات"، وعند عودته أنشأ "جمعيّة الطائفة الارثوذكسيّة"، ثمّ اتّصلت به جمعيّة الاتّحاد والترقّي لينضمّ إليها، فانخرط فيها فترة قصيرة ثمّ انسحب منها ليبعث فرعا لجمعيّة الإخاء العربي العثماني، وشارك في الثورة العربيّة الكبرى.[١٠٣] وكان يعتبر الجمعيّات من أهمّ وسائط تنبيه الشعور الوطني في الأمّة العربيّة، ويعتبر أنّ كلّ جمعيّة هي مدرسة، بقدر ما أنّ كلّ مدرسة هي جمعيّة.[١٠٤]

٣/٣-"جمعيّة النهضة العربيّة" (١٩٠٦)

يقول محبّ الدين الخطيب في تقديم مذكّرات صلاح الدين القاسمي، وهما من أبرز مؤسّسي جمعيّة النهضة العربيّة: "هذه الجمعيّة هي رمز العزيمة الأولى لبعث العروبة، بعد أن هجعت ألف سنة أو تزيد. تأسّست بجوار عرش السلطان عبد الحميد، وهو في عرين جبروته، من شباب عربي كان يتدفّق حيويّة ورجولة، ويقوم بواجبه نحو العروبة والإسلام."[١٠٥] ويشير مؤسّس آخر إلى أهمّيّة نشاط هذه الجمعيّة في فترة الاستبداد الحميدي، حيث كانت فروعها المنتشرة في الأستانة والمدن العربيّة "تعمل على الرغم عن الخشية من جواسيس السلطان عبد الحميد، وعلى الرغم عن جبروته وطغيانه".[١٠٦] تمثّل هذه الجمعيّة، التي اعتبرها البعض "أمّ الجمعيّات العربيّة"، مدرسة دمشقيّة لها تاريخ حافل في تكوين القوميين العرب المسلمين، ولها كذلك ما قبل تاريخ زاهر، خطّه المعلّم الكبير، طاهر الجزائري.

تمتدّ جذور هذه الجمعيّة إلى ما يعرف بحلقة دمشق الكبرى، وهي حلقة أدبيّة علميّة تشكّلت في عهد ولاية مدحت باشا على سوريا، وتمحورت حول طاهر الجزائري المعلّم بالمدرسة الظاهريّة، الذي كان وراء بعث جمعيّة المقاصد الخيريّة والمكتبة الظاهريّة بدمشق والمكتبة الخالديّة بالقدس، وساهم بدور كبير في نشر المدارس العربيّة بسوريا وإحياء التراث العربي، وعندما تحوّلت الجمعيّة الخيريّة إلى إدارة معارف عيّن مفتّشا عاما للمدارس الابتدائيّة، ثمّ مفتّشا لدار الكتب.[١٠٧] ضمّت هذه الحلقة علماء مصلحون مثل جمال الدين القاسمي وعبد الرزاق البيطار وسليم البخاري، وبعض التابعين الشبّان مثل محمد كرد علي وشكيب أرسلان ورفيق العظم وسليم الجزائري وعبد الوهاب المليحي (المعروف بالانكليزي) وشكري العسلي وفارس الخوري، وكان بعضهم ينشط ضمن حلقة سياسيّة سريّة متّصلة بجمعيّة الاتّحاد والترقّي[١٠٨]

وتشكّلت في مطلع القرن العشرين (١٩٠٣- ١٩٠٤) حلقة دمشق الصغرى، وكانت هذه الحلقة، المتّصلة فكريّا بحلقة طاهر الجزائري، تتكوّن بالأساس من تلامذة الصفوف الأخيرة في المدرسة الحكوميّة الثانويّة الوحيدة بدمشق (مكتب عنبر)، وهم محبّ الدين الخطيب وعارف الشهابي وصلاح الدين القاسمي وصالح قنباز، إضافة إلى لطفي الحفّار وعثمان مردم وزكي الخطيب ورشدي الحكيم ، واستقطبوا لحلقتهم بعض الشبّان المتعلّمين من بيروت مثل عبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني. وكان الهدف الظاهر لهذه الحلقة دراسة التاريخ العربي والآداب وخصوصًا اللغة العربيّة، وذلك بإنشاء غرف المطالعة وإلقاء المحاضرات. أمّا الهدف الحقيقي، فكان تلقين أسس القوميّة العربيّة والدعوة إلى انتزاع حقوق العرب المهضومة من الترك في إطار إصلاحي عثماني.[١٠٩]

وفي أواخر سنة ١٩٠٥، سافر محبّ الدين الخطيب إلى الأستانة لمواصلة دراسته الجامعيّة، وسافر إليها في نفس الوقت عارف الشهابي وعبد الكريم قاسم الخليل وشكري الجندي وغيرهم. وقام هناك بمواصلة مشروعه، فكوّن صحبة عارف الشهابي حلقتين لجمع الطلبة العرب وتكوينهم وتثقيفهم، ثمّ أعلن في ديسمبر ١٩٠٦ عن تحويل الحلقتين إلى جمعيّة أطلق عليها اسم جمعيّة النهضة العربيّة.[١١٠] ويذكر صلاح الدين القاسمي، الذي تكفّل ببعث فرع دمشق صحبة لطفي الحفّار بعد أن كلّفهما محبّ الدين الخطيب بذلك، أنّ هذه الجمعيّة نظّمت أوّل تظاهرة احتفاليّة بإحدى منتزهات الأستانة في جويلية ١٩٠٧، فألقيت الخطب والأشعار. وبعد عودة أعضاء الجمعيّة إلى

وطنهم خلال العطلة تمّ الاتّفاق على تحويل المركز العام لجمعيّة النهضة من عاصمة الخلافة إلى دمشق حاضرة الشام.[١١١]

ضمّت جمعيّة النهضة العربيّة نخبة من "الدماشقة الأصلّاء" ينتمون إلى عائلات عريقة مثل عائلة العظم والخطيب والشهابي وكرد علي ومردم والحفّار والقوتلي،[١١٢] وهي عائلات أعيان وعلماء وتجّار تجاوزت المجتمع التقليدي المنغلق، كما تجاوزت جمعيّة النهضة الأفق السوري الضيّق وانفتحت على الأفق القومي العربي. وكان كلّ المنتمين لحلقتي دمشق، ثمّ لجمعيّة النهضة بعد ذلك، من المسلمين، وذلك باستثناء المسيحي فارس الخوري الذي تحدّث عنه لطفي الحفّار في مذكّراته بإعجاب كبير.[١١٣] ويعتبر هذا التطوّر مؤشّرا واضحًا على تحوّل زمام المبادرة في تكوين الجمعيّات السياسيّة من المسيحيين العرب إلى المسلمين الذين لم يتكوّنوا في المدارس التبشيريّة، بل تأثّروا بأفكار عبد الرحمان الكواكبي ومحمد عبده والأفغاني وطاهر الجزائري، وهو ما يفسّر تراجع الدعوات الثوريّة والانفصاليّة ذات البعد الطائفي أو الاستقلالي، مقابل التمسّك بالنهضة والإصلاح والشورى، وبالرابطة العثمانيّة. وكانت هذه الجمعيّة شبيهة من حيث الشكل بالجمعيّات الثقافيّة الأولى التي ظهرت في بيروت، ولكنّها أكثر إحكامًا وانتشارًا، وأكثر ارتباطًا بالهدف القومي. ويقول عنها لطفي الحفّار: "كانت جمعيّتنا سريّة تعمل لبثّ المبدأ الوطني القومي العربي، وتعليم الأميين في المدن السوريّة، ثمّ أنشأت في دمشق غرفا للقراءة كانت تلقى فيها المحاضرات التوجيهيّة. وعبّر محبّ الدين الخطيب رئيس جمعيّة النهضة عن ذلك بأسلوب مغاير، حيث قال إنّ مهمّتها هي: "تعريف شباب العرب المثقّفين بعروبتهم، ودعوتهم إلى التعاون في إصلاح المجتمع العثماني".[١١٤]

شهدت جمعيّة النهضة، بعد ثورة ٢٤ جويلية ١٩٠٨ وإجبار السلطان عبد الحميد الثاني على إرجاع العمل بالدستور، تحولاً كبيرًا بعد أن كانت قد توقّفت عن النشاط منذ بضعة أشهر، إذ بادرت بعد يوم واحد من عودة المشروطيّة بالإعلان عن نفسها بوصفها جمعيّة علنيّة، وحوّلت اسمها إلى "جمعيّة النهضة السوريّة" استعدادا لطلب الترخيص القانوني. وتصوّر لنا رسالة لطفي الحفّار إلى محبّ الدين الخطيب المؤرّخة في ٨ أوت ١٩٠٨، موقف أعضاء جمعيّة النهضة من إحياء الدستور الجديد، وحالة الفرح والانتشاء التي عمّت السوريين نتيجة لذلك، إذ يقول:

"أخي! ما هذه الحركة القائمة القاعدة؟ ما هذا الانقلاب الكبير؟ ما هذا التبدّل السريع؟ ما هذه الأضواء ولم هذه الأنوار المضيئة في شوارع دمشق، ليلاً ونهارًا، بل في كامل أنحاء سوريا؟ وما هذه الاحتفالات العظيمة التي تقام وهذه الخطب الرنّانة التي تلقى على الجمهور؟ هل أنا في حلم أم أنا في جنون! كلّ شيء قد تغيّر وكلّ أمر قد تبدّل. تعال وانظر إلى مدينتك المحبّبة دمشق، نحن الآن أصحاب الكلمة، نحن المنظور إلينا، نحن المسيطرون على أفكار الشعب". ويذكر الحفّار أنّ جمعيّة النهضة السوريّة نظّمت يوم ٦ أوت احتفالا كبيرا في منتدى "مقهى القوتلي بالسنجقدار" برئاسة عبد الرحمان الشهبندر، تداول خلاله عدّة خطباء، أغلبهم من جمعيّة النهضة، على إلقاء الخطب الحماسيّة. وتكوّنت في اليوم الموالي بدمشق جمعيّة جديدة ترأسها سليم البخاري، وشارك فيها فارس الخوري وعبد الرحمان الشهبندر وغيرهم من الأعيان والتجّار، وعرفت باسم "الجامعة العثمانيّة".[١١٥] ويبدو أنّ هذه الجمعيّة تأسّست في سياق الحملة الانتخابيّة لمجلس المبعوثان والتقرّب من النظام الجديد، لذلك حظيت بمساندة جمعيّة الاتّحاد والترقّي التركيّة، في حين كانت علاقة جمعيّة النهضة بالمقابل متوتّرة مع الاتحاديين، الذين وضعوا أمامها العراقيل والعقبات لمنعها من النشاط العلني والقانوني.

ولعلّ أهمّ ما استوقفنا في رسالة الحفّار تأكيده أنّ جمعيّة النهضة العربيّة غيّرت اسمها إلى جمعيّة النهضة السوريّة، وبدا كأنّ الأمر تمّ بطريقة تلقائيّة، حيث يقول: "والآن أخبرك بأمر سيسرّك جدّا وهو أنّنا أعلنّا جمعيّتنا باسم: "النهضة السوريّة" وأضحت تعرف بهذا الاسم في جميع أنحاء سوريا لأنّها صارت علنا في هذه الظروف التي أعلنت فيها جمعيّة الاتّحاد والترقّي الدستور العثماني"، ويضيف في آخر الرسالة متحدّثا عن احتفال مقهى القوتلي قائلاً: "ووضعنا في صدر القاعة قطعة كبيرة هذا نصّها: احتفال جمعيّة النهضة السوريّة". وذكر الحفّار في مقال نشره بجريدة "العرب" سنة ١٩١٨ أنّ جمعيّته أعلنت نفسها بعد إحياء الدستور باسم جمعيّة النهضة السوريّة "تفاديا من ضغط الاتحاديين الذين كانوا أصحاب النفوذ والحكم والذين دهشوا حينما أعلنت عن نفسها.[١١٦] إلّا أنّ شهادات باقي المعاصرين، مثل الخطيب والشهابي والقاسمي، تتّفق في كون الاتّحاديين هم الذين فرضوا على هذه الجمعيّة تغيير اسمها لأنّ كلمة "العربيّة" غير مرغوب فيها من رجال الاتّحاد والترقّي نظرا للشحنة القوميّة التي تحملها، كما فرضوا تعديل نظامها الأساسي لتكون جمعيّة سوريّة ثقافيّة محضة لا علاقة لها بالسياسة.[١١٧]

انتخبت جمعيّة النهضة في بداية سنة ١٩٠٩ هيئة جديدة تتكوّن من محبّ الدين الخطيب وحكمة المرادي ورضا مردم وزكي الخطيب وعبد الفتاح الجندي وسامي العظم وعثمان مردم ولطفي الحفّار، وعندما اضطرّ محبّ الدين الخطيب إلى السفر إلى الأستانة، عوّضه رضا مردم في رئاسة الجمعيّة.[١١٨] واضطرّت الجمعيّة في اجتماع ٤ أفريل ١٩٠٩ إلى التوصّل إلى حلّ وسطي يقتضي تحويل اسمها إلى جمعيّة "النهضة" فقط وحذف كلمة "السوريّة" التي اقترحها الاتّحاديّون حتّى يتسنّى لها الحفاظ على فروعها بالخارج، إلّا أنّ القانون الأساسي الذي اقترحته الجمعيّة تمّ رفضه من قبل الاتّحاديين، الذين نجحوا بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد، في تمرير قانون جديد في مجلس المبعوثان بتاريخ ٧ جويلية ١٩٠٩ ينصّ على منع "قيام الجمعيّات ذات الأهداف السياسيّة والتسمية القوميّة في الدولة العثمانيّة". وأجبروا على تعديله مرّة أخرى حتّى يطابق قانون الجمعيّات الجديد، فحصلت على الترخيص القانوني سنة ١٩١٠، وتواصل نشاطها إلى بداية الحرب العالميّة الأولى رغم تراجع مكانتها، وانضمام بعض أعضائها إلى جمعيّات أخرى.[١١٩]

وكانت "جمعيّة الإخاء العربي العثماني" (سبتمبر ١٩٠٨) آخر جمعيّة عربيّة تظهر في عهد عبد الحميد، ولكن لم يكن ظهورها في الأستانة مرتبطا بمقاومة الاستبداد الحميدي، وإنّما ظهرت في غمرة الحماسة العامّة التي تلت عودة العمل بالدستور المعلّق. وكانت غايتها عون جمعيّة الاتّحاد والترقّي في الحفاظ على أحكام الدستور، وجمع كلمة جميع الملل العثمانيّة، والسعي إلى تأييد العدل والحرية والمساواة بين جميع العثمانيين.[١٢٠] وقد أصدرت هذه الجمعيّة جريدة باللغة العربيّة تنطق بلسانها وتحمل اسمها، ونذكر من أبرز رموزها شفيق المؤيّد الدمشقي وعارف المارديني وشكري الأيّوبي وصادق المؤيّد وشكري الحسيني المقدسي. واستغلّ الاتّحاديّون اندلاع الثورة المضادة الفاشلة في ١٣ أفريل ١٩٠٩، ليزيحوا السلطان عبد الحميد من الحكم، وليقرّروا حلّ الجمعيّات الناشطة ومنها جمعيّة الإخاء العربي، وكان ذلك بداية ظهور الشكوك حول نوايا الاتّحاديين، ولكنّهم اضطرّوا قبل بداية اعتماد سياسة التتريك وإعلاء القوميّة الطورانيّة، إلى استمالة النوّاب العرب في مجلس المبعوثان، ولم يعارضوا تكوين جمعيّة "المنتدى الأدبي" برئاسة عبد الكريم الخليل في صائفة ١٩٠٩.[١٢١]

خاتِمةٌ

نصل في الختام إلى تأكيد نفي الفرضيّة التي أشرنا إليه في البداية على لسان جورج انطونيوس، الذي اعتبر أنّ الحركة القوميّة العربيّة كانت في عهد الحميد "هاجعة كأنما استغرقت في النوم"، إذ بدت لنا بخلاف ذلك نشيطة ومتنوّعة، ولعلّ هذا الباحث ركّز بصفة لا واعية على جمعيّات المسيحيين العرب فقط، التي تراجع حضورها وتأثيرها بالفعل، أو إنّ طبيعة النشاط السرّي حال دونه وكشف بعض الجمعيّات المهمّة التي نشطت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني مثل جمعيّة حفظ حقوق الملّة العربيّة وجمعيّة الشورى العثمانيّة وجمعيّة النهضة العربيّة. ولتصحيح هذا المعطى، نقول إنّ السّمة الغالبة على الجمعيّات العربيّة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أي في عهد التيقّظ أو التنبّه القومي، تتمثّل في التمسّك بالرابطة العثمانيّة، والمطالبة بالإصلاح السياسي في الإطار العثماني، وعدم التحمّس لمطلب الاستقلال العربي، وحتّى لقضيّة استعادة الخلافة. ويعتبر ذلك نجاحًا نسبيّا لسياسة عبد الحميد، ولكنّه يعكس في الوقت ذاته خصوصيّات هذه الحركة القوميّة الوليدة التي نشأت في صفوف النخب المسيحيّة العربيّة العصريّة ثمّ سيطرت عليها النخب الإسلاميّة بشقّيها التقليدي والعصري، وفي ظروف تميّزت بتنامي الأطماع الاستعماريّة الأجنبيّة، ممّا جعل منها حركة نخبويّة تفتقر إلى العمق الشعبي والثوري، وحركة إصلاحيّة تسعى إلى إنقاذ البلاد العربيّة من الاحتلال الأجنبي الذي يمكن أن يتذرّع بحماية الأقليّات المسيحيّة العربيّة، التي كانت تبحث من جهتها عن مشروع جديد ينأى بها عن الطائفيّة، ويحميها في نفس الوقت من البقاء تحت سيطرة الأغلبيّة المسلمة.

يعطي هذا التحليل مشروعيّة أكبر إلى الفرضيّة التي طرحها المؤرّخ زين نور الدين زين، إلّا أنّ القراءة المجهريّة للجمعيّات وتطوّرها، تكشف لنا أنّه لا يمكن أن ننفي عنها الصفة القوميّة تمامًا، حيث شهدت الجمعيّات العربيّة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني تحوّلا مهمّا من حيث طبيعتها وتركيبتها وأهدافها، ويتمثّل في الانتقال من جمعيّات طائفيّة مغلقة إلى جمعيّات عربيّة لا تتجاوز حدود الأفق السّوري، والتطوّر بعد ذلك من جمعيّات عثمانيّة إصلاحيّة إلى جمعيّات قوميّة عربيّة استقلاليّة. وقد حصل التحوّل النوعي الأوّل مع جمعيّة بيروت السريّة، التي اضطرّت إلى الانفتاح على العناصر المسلمة في سورية وتبنّي بعض مطالبها، وإلى التحالف مع الماسونيين، الذين هيمنوا تاريخيّا على مختلف الجمعيّات القوميّة في أوروبا بما فيها جمعيّة

الاتّحاد والترقّي التركيّة، وغلّبت الطابع السياسي والثوري على نشاطها، لكنّها اكتفت بتجاوز الأفق اللبناني الضيّق نحو الوطن السوري من دون التفكير في الاستقلال التام عن الإمبراطورية العثمانيّة.

وظهـرت، بعـد تبلـور ملامـح السياسـة الاسـتبداديّة والإسلاميّة للسلطان عبد الحميد، جمعيّات على طرفي نقيض: بعضها طالب بالاستقلال العربي عن طريق الثورة على الترك (جمعيّة حفظ حقوق الملّة العربيّة وجمعيّة رابطة الوطن العربي)، وبعضها تمسّك بالرابطة العثمانيّة، مع المطالبة بإحياء دستور ١٨٧٦ والقضاء على الاستبداد والدفاع عن العرب ومقوّمات قوميّتهم العربيّة (جمعيّة الشورى وجمعيّة النهضة)، والملاحظ أنّ الجمعيّات الاستقلاليّة تلاشت بسرعة، في حين مثّلت الجمعيّات الإصلاحيّة النواة التي انبثقت منها الجمعيّات القوميّة الاستقلاليّة بعد هيمنة الاتّحاديين الأتراك. ولا يفسّر هذا التحوّل بتأثير سياسة السلطان عبد الحميد فقط، بل إنّه يرجع أيضًا إلى عوامل أخرى مهمّة منها الدعم الأجنبي لهذه الجمعيّات، وخصوصًا الدعم الإنكليزي والماسوني، وتراجع هيبة الإمبراطورية بعد تتالي هزائمها العسكريّة وانقساماتها السياسيّة، ومنها خصوصًا تحوّل مركز الثقل داخل الجمعيّات القوميّة العربيّة من المسيحيين اللبنانيين إلى المسلمين السوريين المتأثّرين بالأفكار الإصلاحيّة المنسجمة مع الثقافة الإسلاميّة التي روّجها بعض المفكّرين مثل محمد عبده وعبد الرحمان الكواكبي وطاهر الجزائري.

وإذا اعتبرنا أنّ الجمعيّات القوميّة العربيّة، قد ظلّت طيلة العهد الحميدي مجرّد جمعيّات نخبويّة وحضريّة تعايشت فيها فئات اجتماعيّة مختلفة الانتماء الطبقي، وكانت علاوة على ذلك سهلة الاختراق وبسيطة التنظيم، فإنّها مثّلت شكلا متقدّما من الانتظام السياسي، وساهمت في إيقاظ الروح القوميّة العربيّة، وفي نشر الوعي القومي العربي، وفي إحياء الثقافة العربيّة وخصوصًا اللغة العربيّة التي تعتبر مكوّنا أساسيًا جامعًا للعرب بمختلف طوائفهم، وشكّلت المدرسة الأمّ التي تخرّجت منها أغلب رموز النخبة القوميّة التي نشطت منذ بداية القرن العشرين في مختلف الجمعيّات والأحزاب القوميّة العربيّة.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد روحي الخالدي، **أسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة**، القاهرة، مطبعة المنار، ١٩٠٨، ص. ١٠٨.

(٢) ديفيد أنان، "الجمعيّات السريّة القوميّة"، في: نورمان ماكنزي، **الجمعيّات السريّة**، إبراهيم محمد إبراهيم (مترجم)، بيروت، دار الشروق، ١٩٩٩، ص. ١٧٥.

(٣) جورج أنطونيوس، **يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القوميّة**، ناصر الدين الأسد وإحسان عبّاس (مترجمان)، ط. ٨، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٧، ص. ١٧٣.

(٤) زين نور الدين زين، **نشوء القوميّة العربيّة مع دراسة تاريخيّة في العلاقات العربيّة التركيّة**، ط. ٤، بيروت، دار النهار، ١٩٨٦، ص. ٥٩ و٦٠.

(٥) جورج أنطونيوس، **يقظة العرب**...نفس المرجع، ص. ٧١.

(٦) زين نور الدين زين، **نشوء القوميّة**...نفس المرجع، ص. ٣٩.

(٧) أبو خلدون ساطع الحصري، **محاضرات في نشوء فكرة القوميّة**، ط. ٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٨٥، ص. ١٢٠.

(٨) محمد عزّت دروزة، **حول الحركة العربيّة الحديثة: تاريخ ومذكّرات وتعليقات**، ج. ١، صيدا، المطبعة العصريّة، ١٩٥٠، ص. ١٧.

(٩) عبد العزيز الدوري، **التكوين التاريخي للأمّة العربيّة. دراسة في الهويّة والوعي**، ط. ٣، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٨٦، ص. ١٠٥.

(١٠) سمير أمين، **الأمّة العربيّة**، ج. ١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٨، ص. ١٣١.

(١١) الهادي التيمومي، **في أصول الحركة القوميّة العربيّة (١٨٣٩-١٩٢٠) نحو إعادة التأويل**، ط. ٢، دار محمد علي الحامي، صفاقس، ٢٠٠٦، ص. ٧١.

(١٢) جورج أنطونيوس، **يقظة العرب**...نفس المرجع، ص. ١٠٠-١٠٦.

(١٣) توفيق علي برو، **العرب والترك في العهد الدستوري العثماني (١٩٠٨-١٩١٤)**، القاهرة، دار الهنا للطباعة، ١٩٦٠، ص. ١٦.

(١٤) عبد العزيز الدوري، **التكوين التاريخي...نفس المرجع**، ص. ١٤٠.

(١٥) عبد اللطيف الطيباوي، "نصوص وحقائق لم تنشر عن أصل النهضة العربيّة في سورية"، **المجمع العلمي العربي**، عدد ٤ (١٩٦٧)، ص. ٧٨٥.

(١٦) بطرس البستاني، **الجمعيّة السوريّة للعلوم والفنون (١٨٤٧-١٨٥٢)**، بيروت، دار الحمراء للطباعة والنشر، ١٩٩٠، ص. ١.

(١٧) كرم البستاني، "المطابع والجمعيّات الأدبيّة في لبنان"، **الأديب**، عدد ٤ (١٩٤٥)، ص. ٥٠.

(١٨) جورج أنطونيوس، **يقظة العرب**...نفس المرجع، ص. ١١٧.

(١٩) تشارلز هنري تشرشل، **جبل لبنان عشر سنوات إقامة (١٨٤٢-١٨٥٢)**، فندي الشعار (مترجم) بيروت، دار المروج، ١٩٨٥.

(٢٠) يغيا نجاريان، **النهضة القوميّة الثقافيّة العربيّة**، بوغوص ساراجيان (مترجم) أكاديميّة العلوم، دمشق، ٢٠٠٥، ص. ٤٧-٤٩.

(٢١) يعتبر بطرس البستاني أوّل من دعا إلى اليقظة العربيّة في نشرته "**نفير سورية**" (٢٢ فيفري ١٨٦١) حيث يقول: "يا أبناء الوطن...هبّوا وانتبهوا واستيقظوا وشمّروا عن ساعد العزم والهمّة. فالآداب والتمدّن ووسائل الاتّحاد والألفة واقفة من كلّ جهة مزدحمة على أبوابكم".

(٢٢) يوسف اليان سركيس، "الجمعيّة المشرقيّة في بيروت"، **المشرق**، مجلد ١٢ (١٩٠٩)، ص. ٣٣-٣٤.

(٢٣) أنطونيوس، ص. ١١٩، نجاريان، ص. ٥٣-٥٤، البستاني، ص. ٥٠، الطيباوي، ص. ٧٨٥، الدوري، ص. ٤٩.

(٢٤) يوسف قزما خوري، **أعمال الجمعيّة العلميّة السوريّة (١٨٦٨-١٨٦٩)**، بيروت، دار الحمراء للطباعة والنشر، ١٩٩٠.

(٢٥) شاهين مكاريوس، "المعارف في سورية"، **المقتطف**، عدد ٧ (١٨٨٣)، ص. ٣٩٢.

(٢٦) يوسف قزما خوري، **أعمال الجمعيّة**...نفس المرجع، ص. ١٠. ويقول في ذلك: "هذه الجمعيّة إنمّا هي صرف علميّة، وليست هي نتيجة عن غيرها ولا مقدّمة لغيرها كيف كان ذلك الغير، وإنمّا هي مستقلة". وأشار سليم فريج في خطبته سنة ١٨٦٩ أنّ العديد من الجمعيّات تكوّنت قبلها ولم تعمّر طويلا، حيث يقول: "ولكنّنا نرى أنّ عددا غفيرا من الجمعيّات لا بل أنّ الثمانية أعشار منها قد سقطت...فأؤمّل أنّ هذه الجمعيّة لا يكون حظّها كحظّ أولئك الساقطات"، ص. ١٩٢.

(٢٧) المرجع نفسه، ص. ١ و٥. والأعضاء المؤسّسون هم: إبراهيم فخري وبولس دباس وحسين بيهم وحبيب الجلخ وحنين الخوري ورزق الله خضرا وسليم البستاني وسليم رمضان وسليم شحادة وعبد الرحيم بدران والأمير محمد الأمين أرسلان وموسى يوحنّا فريج.

(٢٨) المرجع نفسه، ص. ٦ و١٤٢ و٢١٩.

(٢٩) وجيه كوثراني، **السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانيّة من بلاد الشام**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٨٨، ص. ١٤٤.

(٣٠) عبد اللطيف الطيباوي، "نصوص وحقائق...نفس المرجع، ص. ٧٨٦.

(٣١) يغيا نجاريان، **النهضة القوميّة**...نفس المرجع، ص. ١١١.

(٣٢) زين نور الدين زين، **نشوء القوميّة**...نفس المرجع، ص. ٦١.

(٣٣) عبد الرؤوف سنّو، **النزعات الكيانيّة الإسلاميّة في الدولة العثمانيّة (١٨٧٧-١٨٨١)**، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع، ١٩٩٨، ص. ٥٢ و٦٨.

(٣٤) وجيه كوثراني، **السلطة والمجتمع**...نفس المرجع، ص. ١٣٠.

(٣٥) عبد اللطيف الطيباوي، "نصوص وحقائق...نفس المرجع، ص. ٧٨٩.

(٣٦) عبد العزيز الدوري، **التكوين التاريخي**...نفس المرجع، ص. ١٥٣.

(٣٧) عبد الرؤوف سنّو، **النزعات الكيانيّة**...نفس المرجع، ص. ٥٠ و٧٤.

(٣٨) قدري قلعجي، **الثورة العربيّة الكبرى (١٩١٦-١٩٢٥)**، ط. ٢ بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٤، ص. ٨١.

(٣٩) سليم سركيس، **سرّ مملكة**، القاهرة، د. د. ن.، ١٨٩٥، ص. ٦٢-٦٣.

(٤٠) زين نور الدين زين، **نشوء**...نفس المرجع، ص. ٦٥.

(٤١) عبد اللطيف الطيباوي، "نصوص وحقائق...نفس المرجع، ص. ٧٩١.

(٤٢) محمد رشيد رضا، "العرب والترك"، **المنار**، س. ١٢، ج. ١١ (١٩٠٩)، ص. ٨٣١.

(٤٣) وجيه كوثراني، **الاتّجاهات الاجتماعيّة-السياسيّة في جبل لبنان والمشرق العربي (١٨٦٠-١٩٢٠)**، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٦، ص. ١٤٢.

(٤٤) عبد الرؤوف سنّو، **النزعات الكيانيّة**...نفس المرجع، ص. ١٩٨٦.

(٤٥) جورج أنطونيوس، **يقظة العرب**...نفس المرجع، ص. ١٥٦.

(٤٦) زين نور الدين زين، **نشوء**...نفس المرجع، ص. ٦٠.

(٤٧) يغيا نجاريان، **النهضة**...نفس المرجع، ص. ١١١- ١١٢.

(٤٨) وجيه كوثراني، **السلطة**...نفس المرجع، ص. ١٣٢.

(٤٩) أحمد عزت الأعظمي، **القضيّة العربيّة: أسبابها مقدّماتها تطوّراتها ونتائجها** بغداد، مطبعة الشعب، ١٩٣١، ٤٩.

(٥٠) أنيس الخوري المقدسي، "النهضة العربيّة القوميّة وأثرها الأدبي"، **المقتطف**، عدد ٣ (١٩٣٨)، ص. ٢٧٩.

(51) - « Fièvre rouge en Islam », *Le Journal*, 16 septembre 1937.

(52) - Louis Jalabert, « La turbulence de l'islam arabe. Du panarabisme aux nationalismes », *Etudes*, t. 234 (1938), p. 172.

- André Violis, « Le traité du Bardo n'est pas respecté disent les musulmans », Ce Soir, 1 août 1938.

(٥٣) ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٩٨-١٩٣٩)**، كريم عزقول (مترجم)، بيروت، دار النهار، ١٩٦٨، ص. ٣٣١.

(٥٤) توفيق علي برو، **العرب والترك...نفس المرجع**، ص. ٥٠.

(٥٥) ارنست رامزور، **تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨**، صالح أحمد العلي (مترجم)، بيروت-نيويورك، مؤسّسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، ١٩٦٠، ص. ٥٦ و١١٤.

(٥٦) المرجع نفسه، ص. ٩١.

(57) Fikriye Karaman, Arab intellectuals under the Young Turks: a comparative-historical analysis on memoirs (1908-1918), Istanbul, Sehir University, 2013, p. 72.

(٥٨) ألبرت حوراني، **الفكر العربي**...نفس المرجع، ص. ٣١٧.

(٥٩) أنيس الخوري المقدسي، "النهضة العربيّة القوميّة...نفس المرجع، ص. ٢٧٩.

(٦٠) أسعد رزوق، "نجيب عازوري الوحدوي المجهول"، **المستقبل العربي**، عدد٤، (١٩٧٨)، ص. ٨٧.

(٦١) إبراهيم فاعور الشرعة، "نجيب عازوري ومشروعه القومي العربي في بداية القرن العشرين"، في: محمد خريسات (محرّر): **بحوث ودراسات مهداة إلى علي محافظة**، عمان، الجامعة الأردنيّة، ٢٠٠٦، ص. ٣١٤.

(٦٢) Eugène Jung, La révolte arabe : de 1906 à la révolte de 1916, (Paris, Librairie Colbert, 1924), p. 19.

(63) Eugène Jung, Les puissances devant la révolte arabe (Paris, Hachette, 1906), p. 62.

(٦٤) نجيب عازوري، **يقظة الأمّة العربيّة**، أحمد أبو ملحم (مترجم)، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٧٨، ص. ٣٧.

(٦٥) **المصدر نفسه**.

(٦٦) **المصدر نفسه**، ص. ٢١٩-٢٢٠.

(٦٧) ألبرت حوراني، **الفكر العربي...نفس المرجع**، ص. ٣٣١.

(٦٨) أسعد رزوق، "نجيب عازوري...**نفس المرجع**، ص. ٨٨.

(٦٩) محمد رشيد رضا، "نشرة إفساد أو حبالة صيّاد"، **المنار**، س. ٧، ج. ٢٣ (١٩٠٥)، ص. ٩١٩.

(٧٠) نجيب عازوري، **يقظة الأمّة...نفس المصدر**، ص. ٤١.

(٧١) عبد العزيز الدوري، **التكوين التاريخي...نفس** المرجع، ص. ١٧٣.

(٧٢) ألبرت حوراني، **الفكر العربي...نفس المرجع**، ص. ٣٢٢.

(٧٣) لويس صابونجي، **ديوان شعر النحلة المنظوم خلال الرحلة**، الإسكندرية، المطبعة التجاريّة، ١٩٠١، ص. ٣٧.

(٧٤) محمد جميل بيهم، **قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور**، ج. ٢ بيروت، دار الكشّاف، ١٩٥٠، ص. ١٩- ٢٠.

(75) - Eugène Jung, *La révolte...op. cit*, p. 23.

(٧٦) زين نور الدين زين، **نشوء**...نفس المرجع، ص. ٩٥، وتوفيق علي برو، **العرب**...نفس المرجع، ص. ٥٢.

(٧٧) محمد رشيد رضا، "فاتحة السنة الثانية عشرة"، **المنار**، س. ١٢، ج. ١ (١٩٠٩)، ص. ١٢- ١٣.
(٧٨) **المصدر نفسه**، ص. ١٣.
(٧٩) محمد رشيد رضا، "رفيق العظم: وفاته وترجمته"، **المنار**، س. ٢٦، ج. ٤ (١٩٢٥)، ص. ٢٩١.
(٨٠) محمد عبد الرحمان برج، **محب الدين الخطيب ودوره في الحركة العربيّة (١٩٠٦- ١٩٢٠)**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠، ص. ٤٤.
(٨١) محمد رشيد رضا، "العرب والترك...نفس المرجع، ص. ٨٢٤.
(٨٢) محمد رشيد رضا، "اللائحة الأساسيّة لجمعيّة الشورى العثمانيّة"، **المنار**، س. ٩، ج. ١٢، (١٩٠٧)، ص. ٩٥٢.
(٨٣) سهيلة الريماوي، "صفحات من تاريخ الجمعيّات في بلاد الشام (١٨٥٠-١٩٠٨): من الجمعيّات العلميّة إلى الجمعيّات السياسيّة"، **دراسات تاريخيّة**، ع. ٧ (١٩٨٢)، ص. ١٤٢.
(٨٤) محمد عبد الرحمان برج، **محب الدين الخطيب**...نفس المرجع، ص. ١٦٥.
(٨٥) محمد رشيد رضا، "رفيق العظم...نفس المرجع، ص. ٢٩٣.
(٨٦) "شوراي عثماني"، **المنار**، س. ١٠، ج. ١، (١٩٠٧)، ص. ٦٨.
(٨٧) محمد عبد الرحمان برج، **محب الدين الخطيب**...نفس المرجع، ص. ٤٤.
(٨٨) محمد رشيد رضا، "رفيق العظم...نفس المرجع، ص. ٢٩٢.
(٨٩) **المصدر نفسه**، ص. ٢٩٤.
(٩٠) عبد العزيز الدوري، **التكوين التاريخي**...نفس المرجع، ص. ١٨٠- ١٨٣.
(٩١) زين نور الدين زين، **نشوء**...نفس المرجع، ص. ١٩٨.
(٩٢) عماد عبد السلام رؤوف، "الجمعيّات العربيّة وفكرها القومي: ملامح الوعي القومي عند العرب منذ مطلع القرن التاسع عشر حتّى قيام الحرب العالميّة الأولى"، في: **تطوّر الفكر القومي العربي**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٨٦، ص. ١١٦.
(٩٣) أنيس الخوري المقدسي، "النهضة العربيّة...نفس المرجع، ص. ٢٧٨.
(٩٤) محمد عزّت دروزة، **نشأة الحركة العربيّة الحديثة**، صيدا، منشورات المكتبة العصريّة، ١٩٧١، ص.٩٤- ٩٥.
(95) Jacob Landau, « An Arab anti-Turk handbill, 1881", Turcica, t. 9 (1977), p. 222-224.
(96) Tufan Buzpinar, « Osmanli Suriyesi'nde Türk Aleyhtari ilanlar ve Bunlara karsi tepkiler, 1878-1881 », Islam Arastirmalari Dergisi, n(o)2, (1998), p. 86.
(٩٧) Jean-François Legrain, L'idée de Califat universel et de congrès islamique face à la revendication de souveraineté nationale et aux menaces d'écrasement de l'empire ottoman, 2(è) édit., Lyon, CNRS-Maison de l'orient et de la méditerranée, 2006, p. 50.
(98) Tufan Buzpinar, « Osmanli Suriyesi'nde Türk ...op. cit., p. 85.
(99) Jean-François Legrain, L'idée de Califat...op. cit., p. 50.
(١٠٠) سليمان البستاني، **عبرة وذكرى أو الدولة العثمانيّة قبل الدستور وبعده**، القاهرة، دار الأخبار، ١٩٠٨، ص. ٥٨.
(١٠١) عبد اللطيف الطيباوي، "نصوص وحقائق...نفس المرجع، ص. ٧٨٦.
(١٠٢) عبد اللطيف الطيباوي، "جمعيّة الآداب العربيّة في القدس"، **المجمع العلمي العربي**، عدد ٤ (١٩٧٤)، ص. ٨٧١.
(١٠٣) حمّودة زلّوم، "خليل السكاكيني"، **الأديب**، عدد ٤، (١٩٦٩)، ص. ٣٨.
(١٠٤) فيصل درّاج، "خليل السكاكيني: المثقّف الحديث وصعوبات البحث عن الارتقاء"، **الكرمل**، عدد ٥٧، (١٩٩٨)، ص. ١٥.
(١٠٥) محبّ الدين الخطيب (تقديم وتحقيق)، **الدكتور صلاح الدين القاسمي وآثاره: صفحات من تاريخ النهضة العربيّة في أوائل القرن العشرين**، القاهرة، المطبعة السلفيّة، ١٩٥٩، ص. ٣.
(١٠٦) سلمى الحفّار الكزبري (تقديم)، **لطفي الحفّار (١٨٨٥-١٩٦٨): مذكّراته، حياته وعصره**، بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، ١٩٩٧، ص. ٢٤.
(١٠٧) محمد كرد علي، "الشيخ طاهر الجزائري"، **المجمع العلمي العربي**، عدد ١٠ (١٩٢٨)، ص. ٥٧٩.
(١٠٨) مصطفى الشهابي، **محاضرات عن القوميّة العربيّة: تاريخها وقوامها ومراميها**، القاهرة، دار ابن الأثير، ١٩٥٩، ص. ٥١- ٥٢.
(١٠٩) قدري قلعجي، **الثورة العربيّة**...نفس المرجع، ص. ٨٢.
(١١٠) محمد عبد الرحمان برج، **محب الدين الخطيب**...نفس المرجع، ص. ٢٣.
(١١١) محب الدين الخطيب، **الدكتور صلاح الدين القاسمي**...نفس المرجع، ص. ٤- ٦.
(١١٢) ظافر القسمي، **مكتب عنبر**، بيروت، المطبعة الكاثوليكيّة، ١٩٦٤، ص. ١٠٠.
(١١٣) سلمى الحفّار الكزبري (تقديم)، **لطفي الحفّار**...نفس المرجع، ٢٩.
(١١٤) محب الدين الخطيب، **الدكتور صلاح الدين القاسمي**...نفس المرجع، ص. ٥.
(١١٥) سلمى الحفّار، **لطفي الحفّار...نفس المرجع**، ص. ٣١- ٣٢.
(١١٦) وجيه بيضون (جمع ونشر)، **ذكريات: منتخبات من خطب وأحاديث ومقالات لصاحب الدولة لطفي بك الحفّار**، ج. ١، دمشق، مطابع ابن زيدون، ١٩٥٤)، ص. ١٤.
(١١٧) محمد عبد الرحمان برج، **محب الدين الخطيب**...نفس المرجع، ص. ٥٨.
(١١٨) محب الدين الخطيب، **الدكتور صلاح الدين القاسمي**...نفس المرجع، ص. ١١.
(١١٩) سهيلة الريماوي، "صفحات...نفس المرجع، ص. ١٤٨ و١٥٣.
(١٢٠) أحمد قدري، **مذكّراتي عن الثورة العربيّة الكبرى**، دمشق، مطابع ابن زيدون، ١٩٥٦، ص. ٩.
(١٢١) أسعد داغر، **ثورة العرب: مقدّماتها – أسبابها – نتائجها**، حماه، مطابع أبي الفداء، ١٩١٦، ص. ٢٧.